الأفَّاقون

سامر عامر

الأفَّاقون
المؤلف : سامر عامر

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : أكتوبر 2018
رقم الإيداع : 2018/19964
الترقيم الدولي : 978-977-769-232-8

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 4 شارع محمد مظلوم -
من صبري أبوعلم - عمارة
أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25
م : 01010490247

إهداء:

إلى أمي وأبي وأختي .

إلى
عمي الذي روض لساني علي الحكي المهندس: علي خليفة
إلى أخي الأكبر ووالدي الآخر: رامي
إلى صديقي العتيق المهندس: صالح أزهري
إلى رفيق الدرب مهندس: خالد كدودة
إلى رفيق الخطى والمشاوير البهية المهندس: مصطفى سعود خوجلي
إلى الزملاء: (خالد فلوتة، عبد العزيز كمبونس، محمد معاوية تنقش، احمد بابل)
إلى الدكتور وعالم الابحاث: جمال حسن سيد أحمد
إلى المهندس : إبراهيم أبو سمرة

إلى ابن خالتي: محمد الخاتم تاج الدين
إلى روح الوالد عبدالعزيز الشروني في عليائها.

إلى
أصدقاء الرعيل الأول:
(معتز العوني، عمر محمود، خالد حميدة، طارق النعيمة، علي حامد، رماح رابح، التجاني أحمد).

إهداء خاص

إلى
روح غسان تاج الدين ابراهيم

ترهقني فكرة موتك، كأن زلزالًا مزق الأرض تحت أقدامنا، وامتلأت قلوبنا بكل ألوان الحزن.

مرت السنوات وطعم الفراق لا زال مُرًا، بدأ الحزن في التوالد من جديد، وتتداعى إلى الذاكرة أشياء....

انصاتك الرزين، تعليقاتك الذكية، صورتك بملامحها النضيرة التي خبأتها الذاكرة في تلافيفها.

الحناجر تدوي كأنين الواهة الثكلى.....

غسان عُد

غسان عُد

غسان عُد

غسان عُد

حتى يختنق صوتنا بالبكاء، يخيل الي أن تكر آيب من عميق الموج لافظًا إياك.

كيف سأخبرك أنني أكتب لك الآن..... وأنت لست هنا !

تغمدك الله بواسع رحمته... عسى أن نلتقي في عَالم أخرى.

شكر وعرفان

وددت أن أشكر نجومًا... طالما اهتديت بنورها:
عميق شكري للبروف: عبدالله علي إبراهيم
لاطلاعيه على باكورة شغلي وهي في حضيض تكوينها.
جزيل الشكر للروائي: عبدالعزيز بركة ساكن
لنقده البناء وملاحظاته الثرة.
وتقديري لكثير من الذين أزاحوا الحجب أمام (الأفاقون) حتى ترى النور.
الصديق الروائي: نميري مجاور.
الروائي: هادي راضي.
الروائي والأديب: أبو بكر خالد.
الناقد الأدبي: شاذلي شقاق.
الصديق : عبدالله ابو الريش
الصديق: محمد أحمد عبدالسلام.
الصديق: يس بكري ابراهيم
ابناء عمومتي: هشام بخيت، أنور حسون

زمرة الأصدقاء:

(محمد الطيب، مصطفى بوب، محمد عمر دقنو، مصعب عثمان، محمد مدني، كامل عبدالعزيز، محمد عباس، أحمد عجيب،محمد الفاضل،عبدالله الزين، باسل نصر، محمد عبدالعزيز، محمد الباقر، عمر اومو، خالد الصادق، عبد المحمود سراج).

بانت الشمس وقبلها اصطبغ الأفق باللون الأحمر، حينها، وبخطواتٍ وئيدةٍ دلف ود العمدة إلى صالة المطار المكتظَّة بالأفّاقين والتي يؤوي إليها المسافرون القادمون من الأماكن البعيدة، يمشي مشيةَ الذاهلِ الحائر حاملًا حقائبَ حزنه الجوفاء ذات اللون الخاطف الذي يتأرجح بين الرَّمادي والسمني.

غير أنَّه مكدَّر المِزاج بعد قضاء ليالٍ مُسهَّدة، عيناه مُحضلَّتان من البكاء، صباحه لا يختلف عن صباحات الأيام الأخرى إلَّا في صوت التثاؤب.

بيد أن ملامحه توحي بأنه بقايا تفاصيل إنسان مندثر من ماضٍ سحيقٍ غوْرٍ على النسيان، وما على الأرض أحدًا أذل منه ولا أشقى.

لايزال في ريعان شبابه إلا أنَّ عينيه خفت فيهما النور وذبل، تهافت جسده تهافتَ الخِباء المقوَّض تطحنه الأيام وهو يكافحها ملتحفًا بأهداب الصبر.

غزا جبهته مقدِّمات الصَّلع، ملابسه التليدة والمهترئة بلغت من الرثاثة نقطة لا يمكن تجاوزها، حتى كتفيه النحيلتين ارتسمت عظامها تحتها، تهدل عارضاه وتجعد جبينه.

الألم مبثوث في قسمات وجهه، منعكسًا على جبهته التي اكتست بأسف

عميق.

رغم ذكورته المستفحلة تنثال دمعه من عينه الدعجاء، تنثال بشكلٍ هندسيٍّ فوق خدِّه المغضن الأسمر، وراء هذا المنظر الضارعِ نفسٌ قريحة تذوب بين اضلاعه ذوبانًا.

أحاسيس غريبة ترجرج جسده من الداخل ويقشعرَّ لها من الخارج، يتداخله الهم واليأس، يساوره حزن عميق نحو فراق مجثمه، رائحة الألم هي الأخرى منبعثة من دموعه الآخذة في النَّزف.

تداعبه الذكريات برائحة الأصدقاء العالقة في شِمْراخه، حينما تلفح وجوهم نسمات الهواء الباردة في أواخر الأمسيات، خوض الأزقة المظلمة في الليالي الباردة.

بعد سنوات صبغتها كل الألوان الساطع منها والقاتم يتوكأ طورًا آخرًا على عصا ترحاله كنسر أرهقته رياح السفر حتى آض مَهيض الجناح، أو ككتلة ثلج ذاب ما حولها، أو في هذا العالم طريدًا، حائرًا.

جثا زُعبوبًا منهكًا واهنًا على أرض المطار الغبراء والرطبة، يشعر بوخز قديم كان مألوفًا لديه، في أون تكهن تحليق طائرته المتجهة ميمنة الخليج، بعدما أضنكه إملاق العيش و المسغبة، فغدا التوجه الكاسح نحو الخليج وهو يحذو حذو سائر أنداده، يشكون همًا من هموم أوطانهم، أو رزءًا من أرزائها، قبل أن يبلغوا سن الهموم والأحزان.

ارتشف كوبًا من القهوة علَّها تطرد الفيروس المشاغب الذي لازمه منذ الليلة الماضية، تخفيف آثار الحفل الذي يقيمه الصداع في سنامه

وتزجية للوقت، يتوارى خلف طاولته وهو مُنزوٍ كتائهٍ في ليل مُدْلهم.

تنخر بعقله مملكة سوس من الأفكار والأوهام تقترب به إلى حافة اللوثة، تخنقه عبرات الأسى، بشعور آسن من الغربة، والدموع تتلألأ في عينيه، خلا بنفسه ساعة أطلق فيها السيل لعَبراته.

كم من الذكريات تلطمه بقبضة من صخر، وهي تعاوده كالحر والبرد وتعاقب الليل والنهار، لا يستطيع لها دفعًا ".

في الأعماق البعيدة من مسارب نفسه يجذب خيوطًا، بعضها يمتد، وبعضها يتقصف، يتذكر أيامًا شدادًا نكدات قبيحة الخاتمة.

هكذا يمر الوقت ثمينًا، يحمل بين دقاته انفجار موته البطيء هدته الدنيا بآلامها وأوجاعها، يتألم كثيرًا من هول المعاناة التي تسبق النهاية.

كان لسانه ملتصقًا بسقف حلقه،وهو يغمغم بما يشبه الاختبال، صوته يشبه الناي الحزين.

أرقى بصره نحو بهو المطار، فأومض بطرف عينه طفلة تلقي السلام مرارًا على كل من يفوت عليها من السابلة، فأجذله مشاغبتها الطفولية، وفظاظتها التي تتمادى في فعلها مع والدها حينما تصفعه في جمجمته الفارغة إلا من شعيرات متناثرة بصورة عشوائية، وهو يكز على أسنانه وينظر إليها ببلاهة.

شبكت نظراتها في عينيه هنيهة من الزمان بسجية الأطفال ترسم على محياه بسمة، حتى يجد برد الراحة في صدره ويجتاحه شعور غامر، لم يخالجه ذلك الشعور منذ أمدٍ بعيد، فابتسم لها محاولًا إخفاء كآبته، تقاطيعها ماثلة

لتقاطيع ابنة أخيه الصغرى زهرة المنزل، التي لم يتزود بها غير نظرة واحدة ألقاها عليها من خلال كلتها وهي نائمة في سريرها.

تأرجح إلى خياله وجهها وضحكتها الندية حينما تتمرغ في صدره وهي تدب على أطرافها حتى تعلو صدره، وضحكتها الساحرة التي تبث وشوشات الحبور في جنبات المنزل.

أحسَّ بدفقة إلى حنين تلك اللحظات، وهو يمرر كفه على دقنه الخشنة، إنه إحساس عميق مفعم بالثراء، سيفتقده حينما يحلق إلى الخليج فامتعض حد الحسرة، والأسى يحز في نفسه.

أبان تلك الهنية ومع جونة الشمس ولج طارق إلى أقبية صالة مطار الخرطوم التليدة بعد أن قضى سنواتِ عجافًا في الخليج باحثًا عن اللقمة السائغة.

بين أعطافه مخايل النعمة، يحمل حقائبه المكتنزة بالهدايا، حيث كان في انتظاره سائر عشيرته وزوجته أمل تلك الفتاة الملتاعة، رقيقة الملامح، كان أنفها صغيرًا وفمها كبيرًا قليلًا، كانت ذات عينين ضاحكتين بمناسبة وبلا مناسبة، خصلات شعرها المتمردة مبعثرة ملتصقة بجبينها، وتدلى بعضها ملتويًا على خدودها.

تبدو جميلة وحزينة في نفس الوقت، جاءت داخل ثوب أنيق بسيط، وتحمل في يدها حقيبة بلون حذاءها.

عانقهم طارق في ودٍ عميقٍ واجتاحه جذل عامر، أمسك يدي والدته الهزيلة يداعب انامله داخل كفه وراح يقبلها. كانت أمل منزوية، تكابد

مشاعرها الفياضة، فقد بدأ عليها التهيب من لقاء زوجها.

تقدَّم طـارق نحوها وهو مثَّاقل الخُطى، اتَّقد وجهها حياءً وخجلًا،وسرت رعشة متدفقة بأوصالها حينما جاء إليها محييًا، تحاول أن تجمع أشلاء لسانها الذي تناثر في الهواء بفعل وقع أقدامه.

ألقى عليها السلام بتحية فاترة وهو يمد أطراف أنامله، فإذا رِعدةٌ شديدةٌ تتمشَّى في أعضائها حتى إنها انجرفت في وادي الشكوك، بكت دموعًا من الأسيد الأسود،لاحقًا أفصح أن حياءه منعه من عناق زوجته أمام أهله!!!! وتحدث كالرجل الغيور الضنين بعرضه. يتساوى لديه السراب والمآب !.

اغرورقت عيناها الخضراوان قبل أن تجهش بالبكاء، كظمت غيظها ولم يسمع لها صوت إلا صوت نحيبها الهامس، فاستدارت وهي تسوق خطواتها في بهو المطار، حتى ساقتها الصدفة نحو ود العمدة فذهبت بصدمة من صدمات القدر أو نازلة من نوازل القضاء، فصارت نيران نظراتها تتفحصه استيقظ عشقها له بعد سبات طويل.

ألقت نظرة طويلة لم تسترجعها إلا مبللة بالدمع، عندما رأته بجسده النحيل وعينيه الحزينتين بلونهما المتمازج.

كانت كُلما تغمض عينها يزورها طيفه ترى شعره الأشقر وملامحه النضيرة تعلوها ابتسامته بحلول الدَّجنَّة، وهو يقتلها في أحلامه ليلة بعد ليلة لعل طيفها يفارقه، الذي يزوره في أخريات الليالي.

لبرهة من الزمان أحسَّت أنَّ رأسها كلها قد امتلأتْ بالدَّمع من

الداخل، حتى طفرت الدُّموع على عينيها واندفعت خارجة.

عندما ألقى بنفسه في لجج عينيها، أحس بنظراتها تكاد تخترق عظامه، كان يعلم سر تلك النظرات، وكان مدركًا إلى أن هنالك قدرًا يُساق إليه ولا مفر.

هرولت لاهثة نحو ود العمدة كالرياح الموسمية يلتقفها ثوبها الوثير كانسًا الدرب خلفها، قلبها العليل طمس على ناظرها رؤية أيِّ أحَدٍ سواه، وارتعش قلبها لذكراه.

على حين غرَّة نزلت عند قدميه واضعة رأسها في حجره، تحاكم نفسها أمام ضميرهاحاملة على كتفها كل الذل وكل الرجاء، هزت رأسها فتماوج شعرها الكثيف بنعومة.

مرت ثواني كالدهر، لم ينطق أحدٌ بكلمة، بدأ الأمر وكأن العالم بأسره قد غدا أبكما، وهي تغمغم بما يشبه الجنون، ملأ جسده بعبيرها وقلبها يرقع على قدمَيْهِ، لم يشأ أن يوقظها من غيبوبتها التي سقطت فيها.

رفع يده ببطء ووضعها على جبهته، تنهد طويلًا ونظر إليها نظرةً دامغة، عرف بأنها ستبكي، وترتجف شفتها السفلى قليلًا، أحسَّ برغبة بأن يحتويها بين ذراعيه ويديه تطوقانها.

كأنما عمدت إلى سهم رائش فأصمت به كبده، وهي أول فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبه، شعر أن قلبه قد فارق موضعه حيث لا يعلم له مكانًا، الضربة التي أصابت قلبه قد سحقته سحقًا فلم يبقَ فيه حتى الدماء.

ثقل لسانه ووهنت عزيمته، وارتعدت مفاصله لكن قذفها بكل ما في ذراعه من عنف، وفي صدره من حقدٍ، مازالت الإهانة تجترح حلقه، ولم يبقَ غير آثارِ جرحٍ قديم يؤلمه من حين لآخر لكنه لا يؤرقه أبدًا، كان له ذلك الكبرياء الذيِ يجعله ثابتًا أمامها مع أنَّ كلَّ شيء بداخله يرتجف، فالعلاقات الغرامية مزيج من صبابة وغضب، وفراق وتلاق، فقد مرت السنوات وطعم الفراق مازال مرًا وود العمدة بعض الأجزاء لديه فسدت، لم يعد بالوسع إصلاحها، وكف قلبه عن الخفقان.

حاول أن يبكي لكن خارت قواه عليها، وتحولت محاولاته إلى انفجار بالضحك، والناس في هرج وضجيج.

أخذت الغيوم تتجمع بسرعة في سماء المطار وكل شيء ينذر بعاصفة هوجاء.

سدَّد طارق نظرةً قاسية باتجاه ودالعمدة -وهو صؤولٌ- والشرر يقدح من عينيه حتى بان لؤلؤ نواياه، ثم أدار وجهه باتجاه أهله الذين ثبتوا أبصارهم في وجهه الذي شعر أنَّ عليه أن يفعل شيئًا، فاندفع دون أدنى تفكير بضرب أمل وهو يعقبها بكلمات لاذعات تسمم الآذان، حينها فقط شعر بأن شاربه يطول.

غريب الأمر.. أيُعقَل أن يمنعه الحياء من عناق زوجته أمام الآخرين، لكن لا يمنعه حياءه من ضربها أمامهم !!!

تجمع لفيف السابلة وكأنما الشمس قذفتهم مع شعاعها، آتون كما الومض البارق.

أفزعتهم أصواتها التي شقت السكون، فاصطفوا ينظرون إلى ما يجري تحتهم بوجل.

سارت أمل والدموع تكسو وجنتيها، وأعينهم تراقب خطاها ومات السؤال في خاطرهم، يجدون في سكاتهم تعزية وسلوى.

هي جمالها ملحوظًا لا يستطيع المرء أن يرد عينه منه بسهولة، أينما سارت ككرة المغناطيس تجذب نحوها الرؤوس في اتجاه واحد.

نفض ودالعمدة عن رأسه كل الأفكار التي تجمَّعت كجيوش زاحفة من النمل، أحسَّ وكأن قواه تخور، هذا الضجيج يعتمل حيز بداخله، وتداعت إلى الذاكرة أشياء حتى صار يذم شفتيه وهو يذوب آسفًا!

بدأ يغرق في همومه من جديد، لم تستطعْ كلُّ خيوط النهار أن تبدد من حوله سواد الليل، يمسك بين أهداب عينه دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك.

بأصابع مبتسمة وسكون في نفسه يشبه سكون الدَّمع المُعلق في محجر العين فتح صفحات مذكراته وآض يقرأ عن زمن عاشه.....

بعيدًا على هامش الحياة، في الحد الكابح بين الحياة والموت، أتى حينٌ من الدَّهر على قريةٍ قابعةٍ على الخصاصة، أخَّاذة ، تسبر أغوارَ النَّفس البشرية، منسيةٍ على مرِّ الزمان والمكان، فهي حياةٌ رافِلةٌ أنِفة أهلها وتضافرهم فيما بينهم في عهد اندثرت فيه تلك السمات وماتت كما اللغة اللاتينية، إما موت بالنَّزق الذي يعتريها والاعتلالات المتناثرة خلال فصول العام، لذا فهي في الحد الفاصل بينهما، تقطن فيها أرواح أضنكتها الحياة، هي قبائل نائية أوشكت على الانقراض، تنحدر من سلالة أفريقية، تسيطر عليها سدنة من طبقة الإقطاعيين، منازلها شيدت من خشب الأشجار ماثلة لطراز الريف الإنكليزي.

هي واحة خضراء يحيطها أُرْجُــوان، ردائها فضفاض مزكرش بالأشجار والخضرة، ويمتد حولها صفٌّ لا متناهي من أشجار النخيل، يغطي كل امتداد الصحراء منافحًا للتصحُّر، الأغلبية الساحقة من الذين يعيشون فيها هم الأطفال والنساء ونفر قليل من الكبار، يتمدد فيها الفقر، كما يتمدد الثعبان في رمالها.

إنها ترجع في تاريخها إلى أقاصي الماضي، الضارب الجذور في التاريخ.

تقع بناية العمدة الخليفة في ضاحية تلك القرية الهادئة، ليست كسائر البنايات، أقرب إلى المعبر الرئيسي، تمتد أمامها مساحات الزروع الخضراء

الشاسعة، في الظلام الحالك تبدو من بعيد كأنها رؤوس أشباح، الوحيدة من البناء الثابت ذو اللون الأخضر والجدران المنقرة، في بهو المنزل شجرة النيم الشامخة ضاربة بجذورها الأرض عن عمرٍ يُناهز الخمسين عامًا، تستظلُّ بها نساء القرية فهي ملاذهن الآمن الذي يستحوذن فيه على ضحكات صافياتٍ مع رشفاتِ القهوة حينما يحتدُّ الصيف يتخللها (قوقاي) القماري القاطنة فوق شجرة النيم، بسجعٍ يذوِّب الصَّخر مُكاءً و حنينًا ورجع غناء.

في غابر الزمان كان ودالعمدة يزجي أوقات ما بعد الغسق تحت شجرة النيم ماطرًا جموع القماري الغفيرة بوابل من حجارة السمهري الذي يجيد صناعته .

في الجانب الأخر من المنزل ينهض صالون العمدة الخليفة السامق، والتليد، له حكاية ورواية أخرى لا تكفي الحروف وصفها، شبيه بالبرلمان تناقش فيه كل ما يمت بصلة للقرية وبالطبع يترأسه العمدة الخليفة وفي أحيان أخرى (حاج الصافي) يطلق عليه أفراد القرية (ديوان المناقشة) أشبه بأيِّ صالون منزل عائلي كبير في القرية.

ذات مساء متشح بالبياض، عامرًا بالحبور، تثاءبتْ شمس القرية الغاربة حتى عانقت المساء في سماء ليلها الجميل، يقف العمدة الخليفة نابضًا بالفرح يتوكأ على عكَّازه الذي لا يتغافل عنه، يعتمر عمامته المربوطة في شكل حلقة إهليجية، التي تغطي جل جبينه وهو إزاء داره يمتن زمرة ضيوفه الذين تطلقت أساريرهم حينما علموا نبأ نجاح ابنه البهي، عقب

إبانة اسمه ضمن قائمة شرف الولاية التي ينتمي إليها، كذلك ودخوله إحدى جامعات العاصمة الخرطوم العريقة والطنانة، جالبًا الزهو للقرية، فمن أكواخ فقر تلك القرية نبع مجد هذا الفطحل، الذي يعد نابغة في زمن أصبح فيه التعليم السوداني عقيم غير قادر على إنجاب أمثاله، ولولا هو لما برزت تلك القرية وذاع صيتها بتاتًا، وكانت لا تزال في طي النسيان.

ورد في بائد العصر حينما انسلَّ وفد والي الولاية القرى بصدد تفقد أوضاعها، تراقصت الدهشة على محياه عند ورد اسم تلك القرية من بين القرى المُزمع تفقدها، لم يكن يدرك وجودها، في خاتمة المطاف جب غشيها، ومازالت تُربتها مقدسة لم تطأْها قدم أي مسؤول !

كان منزل العمدة الخليفة في ذاك اليوم كالبحر المائج الهائج، فقد اصطخبت فيه حركة الزائرين.

بعد ولوج الزائرين صوب (الصالون) اتسع لهم المكان، كما اتسع القلب لاحتضانهم تفوه العمدة الخليفة قائلًا:

- يا الطيب نادي أخوك، الناس عايزة تبارك ليه النجاح.

لم يمضِ أون طويل حتى صار محمد الخليفة يفتح الباب في هدوء اللصوص، يخطو خطواته الأولى للصالون، كان في ذلك الوقت في الثالثة والعشرين من عمره، أسمر، فارع الطول، واسع العينين والجبهة، شعره المجعد ينساب على جبته الخضراء بشكل هندسي، يرتدي جلباب وصِدار حيث يمثِّلان الزي الرسمي للقرية، يُكنَّى منذ نعومة أظافره بـ(ودالعمدة).

فور دخوله صالون والده، الذي يعجُّ بأعيان و أكابر (الحلة) و (الحلَّال) المجاورة، كثيرًا ما يجتمعون في صالون العمدة الخليفة أما لمناقشة شأن من شؤون إحدى القرى، أو ليتسامروا أو يتجاذبوا أطراف الحديث.

صاح الجميع :

– مبروك يا ودالعمدة، والله رفعت راسنا.

أشار إليه بالجلوس معهم، وهذا لا يحدث إلَّا لماما، فليس من عاداتهم واحتذاءهم السماح للصبيان بالجلوس مع الكهول، تلك خطيئة شنعاء تستحق أشد أنواع العقاب، وفي نهاية الأمر اضطرَّ مذعنا للامتثال لأوامرهم.

جثا على يابسة الصالون على فروة كبيرة من جلد الأسد، ملاصقًا لوالده وهو في منتهى التوتر وعيناه لم تبارح الأرض، وصار كما الضيف وهو في منزله.

أول من استهل الحديث (حاج الصافي)، طويل القامة، شاحب الوجه، ذات لحية خفيفة يعتريها بعض الشيب الباهت، يحسب الساعد الأيمن للعمدة الخليفة جدد التهنئة لود العمدة و أردف :

– كمل تعليمك ده، وواصل تفوقك، عشان ترجع تبقى العمدة مكان أبوك.

اعترت ودالعمدة رجفة خفيفة، لم يلاحظها أحد، تململ في جلسته بفعل تلك الكلمات، والدهشة ملازمة له، علامات الإنباس بادية على محياه، لكنه كان هادئًا يراقب الأشياء في صمت مُتقَنٍ يجرجر بصره في

الصالون، يحاول من وراء منظاره السميك أن يلتقط النظر خلسة، فقد رأى كل شيء، وكان من بين ما رأى ذلك البريق الذي توهج فجأة في عيون العمدة الخليفة أبعد وجهه من منطقة نفوذ عيني والده وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تقطر انتصارًا، واستدار نحو حاج الصافي، ليسمع في هدوء هذه العبارة بالذات مرة أخرى، ويرى في عيون المجلس كل علامات العجب والاستفهام التي يمكن أن تخطر على باله.

مرت ثواني كالدَّهر، خيم الصمت وعم السكون، توارت الحروف خلف الهمس، تلك الكلمات صداها يخترق نسائم الروح، التبشير بالعمدة القادم، أثار حنق المجلس.

مرت دقائق، ارتشف (حاج احمد) من سلسبيلها الحكمة، فخرج صوته بشكيمة كاسرًا جدار الصمت، متغمس دور الوصي حتى لا تنشأ مشادة كلامية تجرف الاحتفاء إلى عراك فزفر بصرامة لا تخلو من ذوق وأدب :

- دي حاجة خلوها للأيام الجاية، نحن هسي في موضوع ودالعمدة، والعمدة ذاته الله يديه لينا طول العمر!

تنفس المجلس الصعداء مع تنهيدات خرجت من أخمص القدمين، عبروا عن اغتباطهم بمفردات عطرات.

نال (حاج احمد) الذي لم يتوان في اغتنام فرصة الحديث ما كان يصبوا له، ومضى يقول بإسهاب :

-شوف ياودالعمدة، خير الكلام ما قل ودل، خت الكلام ده في بالك،

الموت جوعًا أهون من عيش الحرام .

بالرغم من أن (حاج أحمد) غير متعلم إلّا إنه الرجل الأكثر حكمة، ربما اقتنى حكمته من كثرة سبره في الحياة، حتى عرف من في العقارب هو أفتكها لدغًا وفي الأصلال أشدها فتكًا.

كانت الكلمة الاخيرة للعمدة الخليفة، ربت على كتف ابنه قبل أن يشرع في الكلام :

-شوف يا محمد يا ولدي أنا عايز أقول ليك حاجتين، زي ما المثل عندنا بقول الواحد لما يتغرب عن أهله بستر.

صمت العمدة الخليفة برهة طويلة من الزمان، تنخم وهو يبوح باعتياص، بفعل الأمراض التي تلاحقه، فهو يعاني من ضعف في البصر ورجفة في اليدين، ووهن في الحركة

- تم سنينك دي سريع، عشان ترجع تشتغل مع الطيب أخوك في الأرض ما بقدر عليها براه، اليد الواحدة ما بتصفق .

ابان تلك الهنية دلف الطيب الشقيق الأصغر لود العمدة ليقدم الشاي والقهوة للحضور، بعصبية مفرطة وضع الشاي على متن المنضدة ولم يجد غضاضة وهو يزفر قائلًا:

- كيف يا أبوي ما بقدر عليها براي، أنا عمري ده كله بزرع، وولدك ده..

صوب سبابته نحو ودالعمدة مقرونة بنظرة هازئة، قبل أن يواصل حديثه :

- بتنقل من مدينة لي مدينة عشان القراية ، ضيع عمره ساي في القراية.

لم ينتظر إجابة العمدة الخليفة، غادر الصالون كاظمًا غيظه، والشرر يقدح من عينيه.

خيم السكون حينا، ثم تفوه العمدة الخليفة بجملة كانت بمثابة ذمام لابنه:

- أهم حاجة ما تنسى عاداتك وتقاليدك.

سمع دوي الرصاص وشظاياه تتطاير في الأفق إنذارًا لاستهلال الحفل، كعادتهم يمطرون السماء بوابل من الرصاص عند كل مناسبة.

انطلقت الرصاصة عالية مجلجلة وشقت إلى عنان السماء.

تحاملت عظام العمدة الخليفة الشائخ على عكازه واتجه ميمنة (الحوش)، بمعية ثلة من كانوا في الصالون باستثناء ودالعمدة لزم مكانه، شارد الذهن، يفكر مليًا، لم تبلغ احتمالاته الغافلة نبوءة الخلافة المزمَع تكليفه بها، يعلم علم اليقين ما أسر به (حاج الصافي) بلا أدنى شك بإيعاز وتناغم من والده العمدة الخليفة، أضحى بين مطرقة الأحلام وسندان العمودية، هذا التلميح لم يخطر على باله البتة، على النقيض مغايرًا لجموحه وأحلامه الوردية التي لم تكن يومًا لقمة سائغة على الدوام ظلت عسيرة الهضم، لطالما أرقت مضجعه منذ أمد بعيد.

تملكه يأس قاتم، لكن خيل إليه بإمكانه استعاضة الواقع، حينما يحل الحين الملائم، للغضب وقت، والتدبير والتفكير وقت آخر، فلو أفشى ممانعة الآن، سيتم توبيخه أشد توبيخ، ربما يتم حرمانه من الدراسة، لذا

صوت العقل يهجع له :

السجال في تلك المسألة سابق لأوانه، وارتأى أن يترك الأمر على ما هو عليه، وأن يحذو حذو قول العقل لا اللسان و أن يلزم بصيص الأمل.

هب واقفًا وتقدم بخطى وئيدة نحو (الحوش) ليشاطر الجموع الغفيرة التي اُجتلبت للاحتفاء به.

هم يحفلون بالماضي المتشبث بعاداتهم رغم تقادم العهد، وهو يحفل بالمستقبل الذي ينتظره، ظل العمدة الخليفة حاملًا عكازه متهللًا بالفرح، ود العمدة محمولًا على الأعناق، يطوف على الحضور، الطيب منهمك في تجهيز الوليمة التي تكفّل (حاج احمد) جودًا منه بنفقتها.

عشرات العجول ذبحت ذلك اليوم، نصبت الموائد أرضًا، لم تشهد لها القرية نديد إلا في عقيقة ودالعمدة لحظة قدومه الحياة للتو، منذ ذلك الحين ينظرون إليه بغبطة، ويتكهنون له بشأن عظيم في المستقبل وأن يغدو ممن يُشار إليهم بالبنان .

كان حفلًا مرتجلًا، تواتر حتى الهزيع الأخير من الليل.

القرية في ذاك الوقت لها مذاق رائع، وهي في أبهى صورها، تضئ لياليها بالفوانيس حتى يتوهج الليل والأفراح بمثابة شمعة تضئ عتمة أيام القرى ومنهلًا يروي ظمأ النفوس، يتربصون لها بين الفينة والأخرى.

ثمة مقولة متداولة في السودان تقول (السودانيون لا يجمعهم إلا الحزن، ولا يفرقهم إلا الفرح) لكن، تأتي أفراح هذه القرى دحرًا للمثل الذي ما من شك من نطق به فاته أن يطل على نافذة تلك القرى وثقافاتها.

على كل حال بعد انتهاء الحفل، ووداع الضيوف، أوى ودالعمدة إلى فراشه في غرفته الخاوية، والجدران الصماء والفراش البارد، ورائحة الانسام العطرة تدغدغ مُخَيَّلته، حتى أهاجت أحلامه وشوقه البالغ للقاء الخرطوم.

دلفت إليه والدته (حاجه السرة) وهو على مشارف النوم، بعد أن فرغت من ترتيب ملابسه التي سيرتديها غدًا، فخاطت الملابس حتى عشي بصرها، غسلت الثياب حتى يبست اطرافها، وبعدما حضر هو من (الحوش) متعبًا، يتوق إلى نوم هادئ في حجرته التي لو امتازت بشيء فلن يكون إلا هذا الدولاب التليد المتآكل في الركن الجنوبي للغرفة بمرآته الشاحبة الممتقعة، يشهد عنكبوتًا ينسج شباكه على سقف غرفته، فوجد فنًا جميلًا راقيًا، أثار فيه الدهشة، فالعنكبوت بطبعه فنان، كما مهندس المساحة، يدرك من أين يبدأ، وإلى أين ينتهي، ويحدد الزوايا، ويحسب المسافات، ويختار المكان الملائم لنصب منزله.

نادته نداءً خفيًا قبل أن تنتحي به جانبًا، ثم أخذت يديه بين يديها تداعب أنامله، وتضغط على فمه بحافة الكوب بأن يشرب من اللبن الطازج الذي أحضرته من ضرع ناقتها وأردفت:

– يا محمد يا ولدي أنا من قبيل كنت بدور أقول ليك حاجة بس كنت منتظرة الناس تمشي، أنت دحين ضروري تقرأ الجامعة دي؟ مش كفاية عمرك ده كله محرومين منك، ما بنشوفك إلا في السنة مرة، كفاية لقايت الثانوي شن طعم قرايتك دي أنا كجنتها واشتغل مع الطيب أخوك في

الزراعة، كمان نطمئن عليك أكتر نعرس ليك فاطمة بت خالتك أمنه، أصلها هي من زمان عينها عليك، البنية دي!

سرح ودالعمدة برهة طويلة كادت كلماتها أن تقود إلى تفكيك أوصال ترابط أحلامه وعزلها عنه، فهي نابعة من قلب أم استبد بها الشجن والشوق لفلذة كبدها، فلها فعل السحر على الأبناء، لكن أحلامه لم تنلْها زعازع الشك، فأضحى قاب قوسين او أدنى من لقاءها، عالقة بذاكرته (مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة واحدة) وهو الآن على جادَّة الطريق.

إن ثمة شيئًا في داخله يدفعه دفعًا إلى طاعة هذه الاحلام.

لم يفق من شروده هذا إلا على صوت والدته قائلة :

– آها قلت شنو يا ولدي؟؟؟

فضحك ودالعمدة بتحاذق مراوغًا والدته:

– يا يمة كلها خمس سنين أتم الجامعة وأرجع ليكم .

في قرارة نفسه يعلم تمام العلم إنها وعود واهية وعارية من الصحة، حاجة السرة هي الأخرى كانت زجلة، فهمت ما يصبو إليه ابنها، ركزت بصرها طويلًا نحوه لتستشف نواياه، فأردفت :

– طيب شن قلت في عرس بنت خالتك ؟؟ من يومها عينها عليك، قبيل ما شفتها كانت بتحدر ليك زين، كوسلك طريقة عرس بيها، العمر ماشي يا ولدي وأنت ما ضامن تعيش كم في الدنيا الزايلة دي !

راحت يداه ترتجفان رغمًا عنه، وظن ودالعمدة إنها حيلة أخرى من والدته لتبقيه في البلدة فرد باقتضاب:

- يا يمة أنا ما بفكر في العرس هذه، لسه بدري عليّ!

أمسكت حاجه السرة بيدي ابنها من جديد ولكن، أخذ السجال منحى مغايرًا، بمقارنة حاجة السرة بين ابنها وشقيقه الأصغر قائلة :

-الطيب أخوك الأصغر منك عمل ليه جنى ينفعه في المستقبل، والقراية دي ما بتنفعك زي الولد.. بدور ليك السند أنا، ما في أم بتدور لي جناها شيتا أعوج، وبنت اختي مالها عيبها لي وحياة سيدي الحسن، ألف من يتمناها!

فقاطع ود العمدة والدته بأدب قائلًا:

-لالا ما عندها عيب، بس أنا ما عارف شكل مستقبلي عامل كيف، وزي ما أنت قلتِ ألف من يتمناها عشان كده ما عايز اربطها معاي ساي.

صارت (حاجة السرة) تؤنب ابنها في صوت مبحوح متذمر على طيشه وفيضان صبره، تغمغم بكلمات فحواها تبديد عمره في التعليم دون جدوى من ذلك.

-بس أنا الله يصبرني عليك يا ولدي ونشوف أخرة القراية دي شنو، خلاص نوم بكرة قدامك سفر .

وثب إلى فراشه ولسان حاله يقول:

-إذا كان فراق الأحبة غدًا، فيا شمس غدًا لا تشرقي.

تثائب الليل يقبل جبين فجر اليوم التالي الملبد بغمام خريف حتى يأذن له بالرحيل، الغيوم تبشر بمواسم خير، الصباح يتوشح لون السلام بعد عتمة الليل ناشرًا أنفاسه بنسمات تبعث في أهل القرية معنى المحبة والتسامح، ما أن يبوح الصبح بسره، حتى يسمع خفيف الأطيار يبدأ الغناء في ملحمة ملهمة، ألحانها منبه واعدٌ لاستيقاظ إنسان القرية.

ضوء الصباح الذي تسلل خلسة من النافذة أيقظ ودالعمدة الذي كان يقط في نوم عميق، ظل يقاوم استرخاء الصباح ونوم ما بقي من ليلة البارحة.

في مكان آخر حاجة السرة تنحني على الصاج لصناعة (الزلابية) طيبة المذاق والعرق ينزّ من سائر بدنها بغزارة، ينسدل شعرها المشيب على كتفيها، في الباحة الخلفية للمنزل ظل العمدة الخليفة والطيب يقدمان الشاي بالحليب ذو النكهة الخاصة، مع قطع صغيرة من البسكويت المحلي للزمرة التي تقاطرت لوداع ابنهم، ريثما يستعد ودالعمدة المنهمك هو في تجهيز عتاده.

بعد مُضي وقت ليس بالقصير تدحرج الموكب قاصدًا محطة القطار، ودالعمدة امتطي صهوة جواده تحفّه الحاشية، بعد أن أحكم شكيمته

كالفارس المغوار، امتشق حسامه المذهَّب الغِمْد، كأعظم من مشى على تلك البقعة، أو زاره الحظ بسديم القرية الذي يغشاها في كثير من الأحيان في اليوم أكثر من مرة وأحيان أخرى يغطيها من جونة الشمس إلى غزالتها، لولا ضيق الوقت لكان الموكب جاب على كل دهاليز القرية طولًا وعرضًا وهم يرددون أغاني شعبية حفظوها عن ظهر قلب، هذه عادة توارثوها جيلًا بعد جيل من أجدادهم القُدامى، على مر العصور لم تشوبها التنافرات التقليدية المتوارثة، التي استساغها نفر كثير من البقية، ميثاقًا على تبجيلهم واكتفاءهم لمن ينوي فراقهم، حتى ولو كانت بضع ليالٍ.

علاوة على ذلك يحملون هدايا، بالرغم من كونها زهيدة الثمن، لكن تعني له الكثير، هنالك ثمة أشياء في الحياة لا تقدر بثمن ويحمل لهم التقدير الشديد بمكنونات قلبه.

ومن جميل خصالهم، لا توجد كلمة شكر في قاموسهم، فقط يردون المكرمة بضعفها.

بعد زهاء ساعة من الزمان وصل الموكب واحتضن ودالعمدة والديه والغصة مازالت في حلقه، بالرغم من حبه الجارف للسفر، حتى اض كنسر ارهقته رياح السفر، إلا أنه يضمر كره مقيت للحظات الوداع .

في تلك الأثناء، أزف وقت القطار وباتت صافرته القوية تدوي، مهيبة من الأفّاقين الصعود على متنه، فأضحى ودالعمدة كفريسة محاصرة في مصيدة، التفوا حول بعضهم وتعالى نواح أهل القرية .

حاجة السرة تذرف الدَّمع كما يذرف السحاب المطر وتقرأ له ما تيسر من الآيات، وترفع يديْها إلى السماء تدعوا أن يحفظه الله، وسحابة حزن استقرَّت على مآقي العمدة الخليفة وهو يدس في جيب ابنه بعض الجنيهات، والشمس توارت حول تناثر السحب تخفي حزنها على فراق ودالعمدة.

تأبط حقائب حزنه المكتنزة بالهدايا واعتلى القطار متثاقل الخطى بعد ان أطلق القطار أنينًا مُفجعًا يتأهَّب إلى الانصراف من أرضه المفازة، على طريقة السابل، يلتفت هنا وهناك كي يودع طبيعة القرية العامرة بكل ما هو خلاب، وكل الأهالي يصيحون بصخب (مع السلامة ودالعمدة)، ويلوحون له بإشارة الوداع، في وسط الصياح برز فحيح العمدة الخليفة قائلًا:

– ما تنسى ترسل لينا جوابًا أول ما تصل.

تبعد القرية عن الخرطوم مسافة سير جمل لثلاثمائة تسع وخمسون يوم وليلة.

مازال منتصبًا على النافذة يطوف بنظراته أرجاء القرية ودمعه ينسال رغم ذكورته المستفحلة، يتنسم رائحة الأعشاب الطرية، سرعان ما يفقده حين ولوج العاصمة الخرطوم، ليشغل حيزه أوار عوادم السيارات والمصانع، يصوب بصره نحو البحيرة (مرآة القرية) التي تعاقبت عليها وجوه أجيال القرية كلها، حتى الأسماك تطفو وتغوص لتودعه وهي تعمل جاهدة لتنجو بمكر من الفتى الملقي بسنانيره، متعقبًا انتشالها.

والضفة الأخرى، الأسد نازل للسقيا، نظر نحوه وتبختر هادئًا غير هياب حتى ابتعد في خيلاء، ويرفع بصره من جديد نحو الزروع الخضراء والماعز ترتع فيها، والريح تعصف بقوة كما لو أنها لم تعصف من قبل، وهي تداعب خيال مآته المعروف هناك بـ(الهوَّاب) المكشِّر عن أنيابه – ليكفَّ العينَ والحسد – وسط الزروع الخضراء، التي ترى على مد البصر.

وفي الجانب الآخر الكثبان تترنَّح مع الرياح التي تهب عاتية على التلال المقيتة التي تلفظ فيها موتاها.

فطاف بعينيه المُتعبتين داخل القطار بعد أن هدّاه الإعياء، جلس على مقعده، ريثما يهدأ غليان المشاعر.

أصبحت صافرة القطار تتلاشى رويدًا رويدًا، وطغى صوت القطار على صوت صيحاتهم، ودخل القطار في محيط السراب، باتجاه مشرق الشمس حتى اختفى و افرنقع الجميع.

لزم مقعده، و مسح دموعه المنهمرة كجريان الماء في جوف الظمآن، جف نهر الأحزان وهو يستعيد رباطة جأشه، سارحًا بخياله في العاصمة الخرطوم، بعد أن تأرجح في خياله وجهُها وارتسمتْ ملامحُها على ضباب نافذته، وأشواقه تسبقه إلى حلم يراوده منذ الصغر ولا يدري المسكين إنها إحدى مُدن السراب المزعومة، والطريق إليها سحيقٌ، ضاربٌ في البعد والأشياء دائمًا من بعيد تبدو أجمل.

بقى مغمض العينين وهو عاقدٌ ذراعيه خلف رأسه لبرهة من الزمان، يجترّ الذكريات من ماضي الذاكرة الصدئة المُندثر بتقادم العهد، يتخلَّلها

شعور بالأسى حيال أسرته، يندب حظه بعدم حضور أغلب مناسبات الأسرة من أفراح وأتراح، وتذمر كثيرًا معاتبًا نفسه، فتمنى لو كانت في قريته مدرسة لما فارق أسرته البته، لكن ظن أن لديه حجة غياب.

بعد مُضي وقت طويل على تحرك القطار مكث قبالة مقعده فتى يافع في مثل سنه، مليح التقاطيع ذات ابتسامة غامضةً، وجبهته غذاها مقدمات الصلع، فأردف بصوت موهنٍ:

-أنت محمد الخليفة ؟؟

تراقصت الدهشة على وجه ودالعمدة ففتح عيناه المتعبتين، قبل أن يرسل إجابته بصوته الدافئ:

- أيوة أنا محمد الخليفة، بس ما عرفتك ؟؟

ساد الصمت لبرهة، قبل أن يخرج صوت الفتى معرفًا بنفسه:

-أنا خالد عمر، اشترك معك في أوائل الشهادة السودانية، رايتك في الصور، وبعد الغوص في أعماق عقلي عقدت مقارنة، فتطابقت الصورة مع شخصك، هم في إدخال يديه داخل جيبه وأخرج الصورة.

أفرد ودالعمدة ذراعيه لأخذ الصورة بيد مرتجفة، وفي ذلك الأوان اشتدت أرجحة القطار فسقطت الصورة، فانحنى ودالعمدة لالتقاطها.

قبل أن يهم بالرجوع إلى وضعه الطبيعي ركز ودالعمدة نظره طويلًا إلى حذاء صديقه الماثل لحذائه، يحمل ملامح الصناعة اليدوية التي ليس لها مثيل ولا شيء يفوق جمالها.

ينتعل ودالعمدة مثل هذا الحذاء أكثر من ثلاثة أعوام وما زال يكدح،

دون أن يبدو عليه الإعياء من قطع المسافات الطويلة كما صاحبه.

وضع الصورة أمامه على بعد نصف متر من ناظره وصدى الذكريات يقوده إلى أيام فرحة النتيجة التي تجول في الخاطر فقال في قرارة نفسه

حقًا النتيجة، يوم يكرم المرء أو يُهان، فتمنى لو كانت بحوزته الصورة قبل الآن حتى تراها والدته والعمدة الخليفة.

مازال القطار يلهث صاعدًا التلال التي تناثرت عليها الشجيرات الشاحبة وصديقه إصابته عدوى الاكتئاب من ودالعمدة فأردف قائلًا بكلمات مفادها الكم الهائل الذي تفقده الولايات والقرى من نوابغها ومصدر فخرها وصمام أمانها فخير مثال أنا وأنت سنويًا، فقط من اجل التعليم يهاجر آلاف الطلاب، وتبتلع الخرطوم في جوفها آلاف مضاعفة ! والمحصلة تفقد الولايات والقرى ثلة نيرة من أبناءها.

عقد ودالعمدة ذراعيه أمام صدره، وصار يصغي باهتمام.

أضاف صديقه متمنيًا تقلص التفاوت الطبقي في المجتمع والذي بدوره سيقلص الفرق في التطور بين الولايات كحد أدنى في الصحة والتعليم وبذلك لبرح الناس قراهم.

بعد نقاش مستفيض في تلك الظاهرة لساعات وساعات بين ودالعمدة وصديقه، وفي كثير من الأحيان يشاطرهم الركاب متى ما سنحت لهم سانحة، لكونها ظاهرة الساعة، قبيل طوي صفحات هذه الظاهرة على متن القطار.

ختم صديقه قبل الخوض في حديث أخر قائلًا:

-خير مثال على ما نطلب مدينة دبي فهي ليست عاصمة الامارات العربية المتحدة على النقيض أشهر منها وأكثر تطورًا.

وأضاف

-اين ستقطن ؟؟

ودالعمدة : سأمكث مع عمي (ابن عم والدي)

أنت في أيادي أمينة إذن.

ولا يدري صديقه بأن حدسه عار من الصحة بعد مضي وقت ليس بالكثير.

أصبح ودالعمدة وسنان الجفون، منهك الجسد جراء حركة القطار المتواصلة، كان النهار على وشك أن ينتهي، فاستأذن من صديقه، طامحًا أن يسترق غفوة لعلها تعينه لمواصلة الرحلة.

استلقى على مقعده ولكن مع ذلك لم يطاوعه النوم، فطاف بعينه المتعبة حول حجرة القطار المكتظّة بالأفاقين، رمق بطرف عينه أحدهم يجلس على الحافه يطالع الشمس في السماء وهي تواصل اندثارها، يرتدي زيًا عسكريًا وقبعة، ملابسه رثة ومهترئة بعض الشيء، سارح في نافذة القطار، تنهمر دموعه بلا استئذان، طابقًا فاهه، لابد أنه آيبٌ من معركة ما، وأن زميله استشهد فيها، ربما قتل أحدهم في المعركة وهو لا يدري سببها حسبما يعرف فقط علموه ان البندقية أهم من الإنسان واقحموه فيها، غير آبه بنتيجتها الحتمية حتى زهقت فيها أرواح لا حصر لها لذلك، تنتابه نوبات تأنيب الضمير، فصار ود العمدة يراقبه بحذر،

ملامحه هي الأخرى توحي بأنه طيب القلب، حتى الحيوانات تأمنه على نفسها، قبل التحاقه بالجيش وهو منساق لترك كل شيء خلفه ماكث في صومعة، فاصبح باحثًا عن الصفاء حتى ولو كان للحظة.

بينما رجل على مشارف العقد الأربعين ذات شعر انسيابي طويل، يطالع كتاب ضخم يحمل اسم تاريخ السودان مسافر بالزمان عبره إلى تلك الحقبة الزمنية، يرتدي نظارة طبية، تبدو عليه سيماء المثقف ملامحه علتها مسحة قاتمة من إرهاق القراءة، وارتحال عينه بين صفحات الكتب، تهيأ إليه أنه كاتبٌ يعتاش من مهنته.

على مقربة منه آخر مكدر المزاج يبدو أنه صعب المراس قويًا على الأعداء ويحتمي به الضعفاء، بمحاذاته أخرون يغطون في نوم عميق وأطفال يركضون، تستهويهم لعبة المطاردة وهم يشعرون بارتياح غامر، وطفل صغير يداعب شعر أمه، ويرسم على محياه ابتسامة، يجعلها تشعر في هذه اللحظات بجذل غامر، إنه إحساس عميق مفعم بالثراء.

تيقظ صديق ودالعمدة بإفاقته، فمضى يقول بإسهاب عن مسألة الهجرة إلى الخرطوم ويثير زوبعة من التساؤلات يجهل إجاباتها وهو متجهم الوجه، بينما يكتفي ودالعمدة بإماءة من راسه حتى لا يقع في سين وجيم وهو في غني عنهما.

قدم إليه صبي الشاي شاي مر الطعم، لكنه فضل احتساء كوبٍ من القهوة لعلها تطرد الفيروس المشاغب الذي لازمه منذ ليلة البارحة وتخفيف آثار الحفل الذي يقيمه الصداع في رأسه، بدأ يستعيد نشاطه

تدريجيًا.

في تلك الأثناء تسلل خلسة رجل عجوز قبالتهم وهو يسير بأطراف أنامله كطفل مرعوب ووجهه صفحة خالية من التعابير، بعد أن وجد مقعده شغله والد وابنه مستغرقين في حديث طويل عن العاصمة الخرطوم.

جثا العجوز على الأرض بعد أن شمَّر ثيابه بجوارهم ولكن بكيمياء التعامل مع كبار السن نهض ودالعمدة من مقعده ليحل مكانه العجوز، وما زال صديقه غارقًا في غياهب العاصمة الخرطوم ويحاول جاهدًا إماطة اللثام عن تلك الظاهرة.

لمعت في رأس العجوز فكرة، هي تلخيص ما يعرفه عن الهجرة إلى الخرطوم، بعد أن نفض الغبار من على متن ذاكرته التي يشوبها بعض الالتباس، فقد وجد ثقبًا ينفث من خلاله نيران الماضي التي تكبح جوانحه.

تراجع إلى الوراء قليلًا حتى لامس قفاه المقعد وأردف :

-ظاهرة الهجرة إلى الخرطوم لها جذور تاريخية بعيدة الأمد، فإنسان السودان دائم الترحال منذ قديم الزمان يبحث عن الماء والخضرة التي كانت تمثل متطلبات الحياة آنذاك، مثلما تُبرَّر هجرة اليوم إلى العاصمة الخرطوم نُشدانًا لواقعٍ أفضل وبحثًا عن أبسط متطلبات الحياة !

ومضى العجوز يقول بإسهاب وهو يحك رأسه الصلعاء بسبابته :

-يحكى في المرويات أن الدولة المهدية كانت شديدة البطش والتنكيل بالشعب السوداني، بلا وازع ديني أو أدنى رصيد من الأخلاق، حتى

وصل الاستبداد أوج مراحله، فكانوا يغتصبون أموال الآخرين عنوة، واستباحوا دمائهم إن عارضوا، يحملون براثن الضغائن على أبناء الشريط النيلي، لاعتقادهم الشائع وقتها مساندة أبناء الشمال للمستعمر ومجابهة الدولة المهدية وهي في حضيض تكوينها.

توقف العجوز قليلًا، ليلتهم بعض من طعامه الصلف واصل حديثه:

-حينما اشتد الاستبداد وبدأت الجبهة العريضة المناهضة للدولة المهدية تتسع، استعان الخليفة عبدالله التعايشي بعشيرته والموالين له من أهل كردفان، فكان استيطانهم في حي الملازمين بأم درمان الذي أخذ هذا الاسم من إنهم كانوا ملازمين للخليفة في ترحاله وصلواته .

ختم العجوز كلامه بأن الهجرة إلى العاصمة الخرطوم بدأت تطفو على السطح منذ ذلك الحين.

زوى ودالعمدة حاجبه كمحقق يحاول فك طلاسم قضيه شائكة، فذلك الكلام، خلافًا لما تم تلقينه له، لازال يذكر حينما كان في الصف الثامن، إن لم تخنه الذاكرة، إن معلم مادة التاريخ يسرد لهم إن كل الملاحم التي خاضتها الدولة المهدية إلى أخر ملحمة أم دبيكرات كانت ملحمة أبطال، ويعرج على سمات الدولة المهدية أحيانًا ويصفها بهتانًا، بأنها أقامت دولة عادلة تسودها سمات العدل والأمانة !!

ترك من كان غارقًا في وحل قراءة كتابه الضخم مقعده واقترب منهم مبتسمًا، إذ استهواه الحديث عن الدولة المهدية وأثار النقاش حفيظته، فبدأت الثرثرة من جديد عن الدولة المهدية.

ظهر أمامهم وقدم نفسه باسم دكتور أحمد ومن ثم أردف قائلًا بلا مقدمات :

-في الآونة الأخيرة عكفت على قراءة المادية التاريخية، حتى فرغت من صياغة مبحث جعلني عاقدا العزم لإعادة قراءة التاريخ بصورة نقدية.

خلع نظارته حتى بانت عيناه المتورمة الجفون، ومرر على النظارة منديل أبيض من الورق وارتداها من جديد قبل أن ينفجر الحوار ساخنّا عن الدولة المهدية، حيث استحضر كل ما في جعبته، وقذف به أمامهم مرة واحدة وهو قائلًا:

الدولة المهدية وما أدراك ما الدولة المهدية، في كثير من الأحيان أتساءل في قرارة نفسي عن سبب المقولة السائدة في المجتمع (أنت قايل الدنيا مهدية) ؟؟

هل يدري أحدكم ماذا تعني ؟؟؟

رفع بصره نحوهم ليرى من سيجيب، ودور بصره من وراء نظارتيه فوق الوجوه، كأنه يستغيث بواحد من الجالسين .

اغتنم العجوز فرصة الحديث، أجاب بإيماءة من رأسه قبل أن يشرع في الكلام، ثم أردف :

هي بالتأكيد ذم للدولة المهدية وليست مدح، فاذا ارتكب أحدنا جرم يتردد إلى مسامعه (أنت قايل الدنيا مهدية).

فقاطعه صاحب الكتاب مؤيدًا وأردف :

-حينما سمعت أنا بتلك الجملة، تقصيت من أحد المعمرين في

الأرض، فمضى يقول بإسهاب عن ظلم وجور الدولة المهدية، والفوضى العارمة التي كانت تعتريها، كما يشاع أيضًا تحريمهم للتبغ (التمباك) لحرمته، الذي كاد يكون محصورًا على أبناء الشمال، وجزاء كل من يتعاطى التبغ، قطع الشفاه.

قاطعه ودالعمدة مذهولًا وهو يتساءل في اندهاش مريع :

-قطع الشفاه ؟!، وابتلع ريقه بصعوبة.

فتنهد صاحب الكتاب وأردف قائلًا بصوت موهن :

-أجل، ولكن للأمانة العلمية، هذا الرأي غير مثبت تاريخيًا وأضاف:

-حينما زار شمال السودان أحد المؤرخين العالميين، كتب في مذكراته (السودانيين، قوم بلا شفاه).

في هذه اللحظة لم تنفك عقدة لسان ودالعمدة، واستأنف الكاتب حديثه:

-تلك كانت ضربت البداية بالنسبة لي حتى أكملت ما كنت انتظره بوجل كتاب عن المسكوت عنه في تاريخ السودان، سأقوم بنشره قريبًا في المكتبات.

فالتاريخ مرتزق يرتزق منه المرتزقون، ويل للتاريخ من المؤرخون.

التفت ودالعمدة إلى صديقه، فلمس في عينيه الاستغراب نفسه الذي يراوده

بعد زهاء ساعتين من الزمان غارقين في غياهب الدولة المهدية، عاد كل منهم إلى مقعده.

لقد كان الوقت قبل منتصف الليل بقليل، ساد القطار ظلام سائد، وكصَّ قلب ودالعمدة من ما سمعه وازدحمت الأفكار في رأسه وراح يذوب أسفًا لكونه كان عائشًا في انفصام عن التاريخي الحقيقي لا المزيف، حتى أضحى كتائهٍ في ليلٍ مُدلهم، فارتمى في أحضان مقعده وهو يساوره حزن عميق وانجرف في وادي الشكوك، يطالع النجم في السماء وهو يواصل اندثاره في الغور السحيق.

أوقدت في قلبه شمعة حرارة اللقاء، والتعجت في أحشائه نار الشوق إلى العاصمة الخرطوم، قبل أن يسيطر عليه الأرق تمامًا، و يذهب في نوم عميق.

وصل القطار إلى العاصمة الخرطوم مع أشعة الفجر الأولى، بعد أن لبث ودالعمدة يومين على مقعده، وهرب المرح من عيون الأطفال.

كان ودالعمدة منهك الجسد وتفوح منه رائحة عرقه الخفيف الممزوج بالعطور المحلية، ودع صديقه خالد وتصافحا في ودٍّ عميق، وكان الاتفاق على الالتقاء حاضرًا في الحفل الذي سيعقد على شرف أوائل الشهادة السودانية، كانت شخصية نعم بصحبتها ولاتزال ذكراها معسولة بفؤاده.

هم بحزم أمتعته، نزل من القطار على عجل، حتى يروي شوقه للعاصمة الخرطوم، وتنهد تنهيدة كأنفاس العاشقين في أول لقاء بينهما، ومازالت حتى تلك اللحظات لا شيء يربطه بهذه الأرض إلا حذاءه.

المحطة تعجُّ بالمشاكسين، ونساء ثكلى هنا وهناك، وباعة متجوِّلين، وسوقٍ رائجةٍ لسماسرة التذاكر، لا يدري ما الجدوى من وجودهم، وأناس يثرثرون في إحدى الزوايا وأحدهم يصفِّق بيديه في غيظ وآخرون يتفوهون بكلمات تسمم الآذان، وضرير يطلب المناجدة، سرعان ما خُيل لودالعمدة، أن الخرطوم ستفتح أمامه كلَّ الأبواب الموصدة.

جلس على مقعد المحطة حتى تهدئة خواطره من نار الشوق المتأججة داخله.

بعد أن انفكت عقدة لسانه بدأ يلقي السلام مرارًا على السابلة، ويوزع

نظراته، تستنجد بالسابلة، لعلها تصطدم في هيأة ابن عمه، التي نقشت في ذاكرته إلى الأبد، حينما وافى القرية ذات ربيع لحضور زواج الطيب شقيق ودالعمدة معين لوالده.

بعض الحمقى يتفوهون بأن السودان لا يعرج عليه الربيع كسائر البلدان، لكن يبدو أن سفينة الحمقى ، لم يُحالفها الحظ لتمر على مثل تلك القرية الجميلة في ربيعها.

والطريف في الأمر، كان يحمل بحوزته مياه معدنية رافضًا الشرب من مياه القرية، لكن بعد أن نفذت المياه المعدنية، فأصبح لا مناص من شرب ماء القرية العطن التي فعلت عليه فعلتها بمعية (الكركم)، بالرغم من أنها زمزمًا لذة للشاربين من أهل القرية.

أصابتاه بلعنة أوصاب البطن، وكان (للنمتّي) نصيب الأسد منه حتى أدمى جسده وبعدها ما ذاق سوى الخبز الجاف ويكابد العطش.

مرت الأيام المقرر بقاءه في القرية ببطء السلحفاة !!!!.

تمنى من الأيام القفز حتى يعود أدراجه إلى الخرطوم، فقد وتق إلى منزله.

كان يرتدي الزي التقليدي للقرية، لكن لون بشرته ولهجته يدلان على أنه من العاصمة الخرطوم.

بيد أنه كانت بادية عليه علامات التمدن، أنيق، يتحدث بمفردات تلامس وجدان أهل القرية، دون فهمها حتى صار معتقلًا بين ضلوعهم، و ساكنًا وجدانهم.

كان احمد شابًا مهزوزًا، لا يستطيع البت في أي شأن دونمًا الرجوع لوالده، رغم ما يخوله له سنه بذلك.

مرت ثلث الساعة إلا دقيقة واحدة وهو على مقعد المحطة حتى ابتسرت رجله.

راح يراقب الناس وهم ينحدرون من القطار الواحد تلو الاخر، وصوت مذياع قطار آخر باقتراب الرحيل، فمحطات السفر دائمًا شاهدة على دموع الفراق، وأمنيات العودة وعناق اللقاء.

أتى إليه شخص بخطوات هادئة، شعره مبعثر، ربت على كتف ودالعمدة، فرفع بصره نحوه، ها هو ابن عمه أحمد، يقف أمامه كان لهذا أخوة في مقتبل العمر، الأول ذو ثلاثة وعشرين ربيعًا والآخر ثمانية عشر ربيعًا يتبعانه، أحدهم تصرف معه بوقاحة وغطرسة بعض الشيء.

صافحه أحمد بحفاوة، أما إخوته، ألقوا عليه السلام بتحية فاترة، الأول رمقه بنظرات هازئة، والآخر نظر إليه شذرًا طويلة ثم أدار وجهه باتجاه آخر وللوهلة الأولى بان لؤلؤ نواياهم.

أوقف أحمد سيارة الأجرة، مقتسمًا مع ودالعمدة الأمتعة، أما إخوته غير مكترثين البتة.

رن هاتف أحمد، فأجاب بسرعة فائقة، مبتعدًا عدة أمتار، يرتفع صوته بين الفينة والأخرى وهو يحاول جاهدًا وصف العطب بسيارته (للميكانيكي) حيث تركها قابعة على الرصيف في إحدى زوايا المحطة .

انحنى صاحب سيارة الأجرة لالتقاط عتاد ودالعمدة، شكله يوحي

بأنه ستيني، ذو لحية بيضاء، لكن انحناءه أوصله مرحلة الترنُّح، وليس هنالك من شيء بعد الترنح سوى السقوط.

قبيل ارتطامه بالأرض، بعنفوان الشباب، اسعفه ودالعمدة بحركة رشيقة، حيث انحنى بطوله الفارع خاطفا الشنطة، زج بها في صندوق السيارة.

جلس احمد في المقعد الأمامي، بمحاذاة السائق، أما ودالعمدة جلس على المقعد الخلفي للعربة، متكور على يمين أبناء عمومته.

كان ودالعمدة منهكًا، وأبناء عمومته أكثر صمتًا

يخيم السكون برهة من الزمان والسيارة هديرها يصدر أنينا، سالكة طريقها الفج، الذي أودى بحياة نفر كثير، يتخلله صوت احمد وهو يشير إلى المعالم البارزة في العاصمة الخرطوم لود العمدة عند المرور، بأي منها، وود العمدة تتسع حدقات عيناه الخضراوين.

ودالعمدة هو الآخر جسده على مقعد السيارة، وسنامه بالخارج محلقًا مع المباني شاهقة الارتفاعات، يحدق في المباني العتيقة، اكفهرت عيناه، مصابة بالذهول من جمال العاصمة الخرطوم، مقارنة بالمدن التي طاف عليها، فلم يتوقع بان هناك ثمة مدينة في السودان بهذا التطور.

لاحَ سؤال في ذهنه خاطف كالبرق، لمَ هذا الفرق الشاسع في التطور بين الخرطوم وأندادها من باقي المدن؟؟؟؟؟.

تبسم بسمة ماكرة في قرارة نفسه قائلًا:

-أرجو إلَّا أُصاب بما تسمى (الصدمة الحضارية).

كانت العاصمة الخرطوم في ذاك الوقت في أوج ذروتها، والشمس قد بلغت أعلى مدى لها، الشوارع مكتظة، اختناقات مرورية، فوضى عارمة، عواء كلاب عقور على قارعة الطريق، فقد أضحت الشوارع ضيقة والبيوت كاحلة إلى حد ما. حينما يتذمر الناس تعلو اصوات أبواق السيارات.

انتهى الطريق الاسفلتي الذي كان يشق المدينة بالعرض، بعد زهاء ساعتين أو أكثر، وصل إلى منزل عمه القابع في أرقى أحياء العاصمة الخرطوم.

ترجل ودالعمدة من العربة، وأصلح ثيابه، بينما أخرج أحمد التعرفة من قعر جيبه، ولم يبقَ بها فلس واحد.

قبل أن يهم ودالعمدة على السير نحو المنزل، قال له سائق العربة هامسًا:

إنه يزاول هذه المهنة على مدار أربعة عقود مضت، ونادرًا ما يجد موقفًا مشابهًا لما فعله، فشكره، متكهنًا رده

لكن لم ينتظر أثابته وأدبر السائق إلى حال سبيله، وهو مثير سحابة من الدخان في وجه ودالعمدة.

اتَّجه صوب المنزل، بعد أن عبر جسرًا خشبيًا قديمًا، تسري من تحته مياه الأمطار الراكدة .

كانت مظاهر الثراء بادية جدًا على المنزل وأهله، مكون من ثلاثة طوابق، مطلي بألوان زاهية، وحديقة جميلة استغرق إنشاءها شهور

عديدة، عدة أشجار متناثرة في فناء المنزل، التي سرعان ما اكتشف إنها للزينة فقط !

يحوي أربع غرف، وصالة تطل على فناء المنزل، في كثير من الأحيان يستقبل فيها الضيوف، وغرفة أخرى خارجية للخدم. وتحيط بالمبنى الأسوار العالية.

في بهو المنزل حمام سباحة كبير جدًا، على شكل حدوة حصان، يحيط به مبنى أبيض اللون.

من الأمور العادية جدًا توجد ثلاث سيارات على الأقل في المنزل.

تلك مكونات الطابق الأرضي، أما ما فوقه مقسم لشقق عديدة التي يراها لأول مرة في حياته، لا يقطنها أحد بل هي لأبناء عمومته في المستقبل كما صرح عمه.

توجد حديقة صغيرة في باحة المنزل الخلفية، ينتصب بجوارها عمودًا، مكبلة به كلاب ضَوارٍ ذوات ألوانٍ سُودٍ غرابيب، ضخْماتٍ تشبه الذئاب، لاغياتٍ في الآنية، مُتَرَبِّصاتٍ بزوار الليل.

لحظة ظهور ودالعمدة أمامها أشهرتْ نُباحها وكشّرتْ عن أنيابها، حتى دب الفزع في ودالعمدة ولكن مع تقادم العهد، ألفت وجهه وصارت الألفة بينهم هي السائدة.

ذات مساء قفز لص إلى المنزل متسلل خلسة، فباغتته الكلاب بعواء أيقظ كلَّ الحي حتى كاد أن يموت اللص هلعًا بينما عيناه فارغتان إلا من خوفه .

فتراجع إلى الوراء وراح الكلب ينبح، فارتج اللص، وتملكه الهلع على مصيره، فتم القبض عليه قبل أن يكر خارجًا.

وغل ودالعمدة إلى الصالة الرئيسية، وعند عبوره بابها، ألقى نظرة على التحف في الجدران باهظة الثمن، ذات الأثاث الانجليزي الذي يعود إلى أول القرن العشرين وربما أغبر بقليل .

كانت الصالة ذات بابين، أحدهما مغلق دائمًا والآخر يؤدي إلى الممر الرئيسي.

سار ودالعمدة في الممر الطويل المفروش بالقطيفة حتى نهايته، كان لديه الإحساس بأن يلتقي بشخص عادي، ويصافحه في ودٍ عميقٍ، فوجد عمه الذي كان محاميًا في بلد لا قانون فيه، وزوجته هي الأخرى امرأة مثقفة تجيد ثلاث لغات، ذات علاقات قوية بسيدات المجتمع الراقي، رأس عمه غداه الشيب، والكهولة ظاهرة على وجناته. كان يطالع عمه إحدى الصحف وهو يحاول جاهدًا أن يضع جذوة جديدة على رأس النارجيلة، ساحبًا منها نفسًا عميقًا فاستقبله بترحيب فاتر، حتى تجمد الدم في عروق ودالعمدة، ولو كان له مأوى غير منزل عمه لولى مدبرًا.

دلف إلى غرفته التي تقرر أن يقطن بها ملازمًا لأحمد، حيث تفصلها عن الصالة ستارة متعددة الألوان.

سار بخفة في الممر الذي يقود إلى الغرفة وهو يشعر بوخز قديم كان مألوفًا لديه

في الغرفة طاولة على متنها جهاز كمبيوتر وهدايا واضحة جدًا انها

ذوق نسائي، وصور أبناء عمومته هي الاخرى على الحائط، ولوحات كبار الفنانين كأنه يراها لأول مرة، وسجاجيد مزخرفة برسوم غامضة.

رتب أمتعته، جلس على الفراش واضعًا رأسه على الوسادة لترتاح قليلًا، قبل أن يأخذ حمامًا يزيل عنه إرهاق السفر الطويل، لكن غرق في غياهب سلطان النوم الذي غلبه، و أخذ قيلولة، ظل هائمًا فيها بين اليقظة والحلم ما يقارب الساعة من الزمان.

أحس ودالعمدة وهو يستيقظ أن أحد ما هزه من كتفه، فلمح بطرف عينه، فإذا به احمد وهو يزفر قائلًا:

-يلا الغداء.

نهض على مهل، غسل وجهه بقطرات صببها على باطن كفه، وجلس مع الأسرة وهو في منتهى التوتر، ربما لاعتياده الأكل وهو جاثيًا على الأرض، ربما لكونها المرة الأولى التي يتناول فيها وجبة مع أسرة خارج إطار قريته.

رتبت الموائد حول حوض السباحة، تحت المظلات الشمسية، التفوا حول مائدة الطعام.

كانوا يجلسون في منضدة شبه مستديرة، الطاولة مزينة بشتى أصناف الطعام، كان الأكل طيبًا وشهيًا حتى أنه امتدح مذاقه.

وهم يبتسمون له بود زائف، وفي أحيان أخرى يمطرونه بنظرات ازدراء.

فشرع في الأكل كيفما تعلم، أن يسمي الله، ويأكل بيمينه، ومما يليه،

وأن يصغر اللقمة ويجيد المضغة.

ظلت الأسرة تتبادل الفكاهة والدعابات التي يجيدها الأب، حيث كانت أنفه كبيرة بعض الشيء، دالة على كذبه، كان يكذب بكل صدق الذي يلحف شاربه فيه. وهو يبتسم من الأذن إلى الأذن، في جو يسوده تعاضد اجتماعي مبلج، يبدو أن لا مجال لإقحام ملغز عويص إلى جو العائلة الخرطومية وذلك بإشغالهم لود العمدة من الحديث وهم يصدقون بكل كذب.

من يتأمل عمه وهو يتناول طعامه، يعرف سر بدانته المفرطة.

صار ودالعمدة، كاليتيم في مائدة اللئام، فهو وحيد بائس بين أناس لا يعرفهم، حتى غدا يزج الطعام داخل معدته بتكاسل، يدس عينيه في طبقه بعد جهد جهيد تفوه ودالعمدة ببضع كلمات التي ظل على الدوام حريصًا على انتقاء الألفاظ قبل نطقها، دونما التحدث بعفوية،

لكن بدويته فضحته في خاتمة المطاف، كما يقال (الطبع يغلب التطبع).

لقد ورط نفسه في زلة لسان، حينما نطق استغلال، استقلال، فانهالت عبارات السخرية والاستخفاف عليه مدرارة، وابتلع ريقه بصعوبة.

أفرغت المائدة ثمرتها في جوف الأسرة، حيث كانت وليمة عسيرة الهضم حتى أتخمت ودالعمدة.

بدأت تتوارى الشمس وتتهادى للمغيب محمرة الوجنتين قبل أن تغرق في طبقات السحاب حتى حل الليل.

كان التعب قد بدأ يأخذ منه كثيرا فكر ودالعمدة أن يأخذ حمام، قبل

الذهاب إلى مهجعه لترتاح رأسه قليلا على الوسادة ويغرق في غياهب سلطان النوم الذي غلبه .

انبهر من الحمام الافرنجي وبين جمع الحمامين معا، وانزلق مرات عديدة على (السراميك)، إنه ليس الحمام الدارج الذي يعرفه.

وجد حنفيَّتين تصبان في البانيو واحدة للماء البارد والأخرى للساخن، وأمامه على رفِّ الحوض مرآة مقعرة.

مسح بكوعه جزءا من المرايا، نظر في ذلك المعترج المائج يفتش عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسا، يطالع تقاطيعه وهو يمرر كفه على ذقنه الخشنة فوجدها كثيفة، وكل شعرة فيها طولها مترا.

مد يديه المرتعشة وفتح الحنفية حتى ملأت البانيو، ثم تمدد فيه ليسترخي، سرى الدفء في أوصاله، أحس بالراحة وأسرف فكره في ألف شيء وشيء، وبغتة قاده السرحان إلى القرية، وعلى وجه التحديد اليوم المتشح بالسواد، حينما انهد حمامهم (البلدي) في موسم الخريف بشقيقه الطيب ذات مساء يوم ماطر، حيث عانق المطر أرض القرية التي أدمن عناقها .

كان مستلقي على فراشه وهو على مشارف النوم، هرعت إليه (حاجة السرة) وهي تلطم على صدرها، تستنجد به.

ساعده ضوء البرق المنبعث حتى رأى الذعر في عينيها أخبرته بالخبر المفجع، تلكأ من الصدمة، حتى اضطرَّ إلى الركض ليلحق بها واتجه صوب اخيه.

أزَّت الريح وقصف الرعد ولمع البرق، وودالعمدة وقف لدقائق مذهولًا من هول ما يرى، لحظات هي حتى تقاطرت القرية عن بكرة أبيها من كلِّ حدَبٍ وصوب في القرية التي يعرف أهلها بعضهم بعضًا، بفعل صرخات حاجه السرة الهستيرية، فهي تصرخ من أعماق شراينها وانسجتها، حتى كاد قلبها ينخلع من صدرها.

فصراخها يتموج ملتاعًا في جوف الليل إلى عنان السماء، يعلو صوتها، يركض فوق شوارع الحلة.

لأيام طويلة لم تتوقف، وهي تهيل التراب على رأسها، عاجزة عن الاتيان بأي حركة.

بدوره صرخ الطيب لساعات وساعات بصخب لم يستطع منع ما انفلت من دموعه وفزعه المهول وهو صريع، خائر القوة، لم يكن خائفًا، لكن أزعجته الصراصير التي تداعب بدنه بين الفينة والأخرى حتى غدا قاتم النفس، وثمة أصوات رهيبة تملأ أذنيه، وأشياء صغيرة تعضد وتلسع.

غمر القرية حزنًا عميقًا و هرب من عيون الأطفال.

كان البئر عميقًا جدًا والطيب ثقيلًا فوقفوا حيارى، يعملوا جاهدين للعثور على طريقة لانتشاله بعد أن رفضوا أن يهبطوا إليها خوفًا من مغبتها.

مرت ثوانٍ كالدهر، لم ينطق أحد بكلمة، بدأ الامر وكأن العالم باسره غدا أبكمًا.

والطقس مشحونًا بالشكوك والترقب، فربما يسفر الأمر عن خيبة مريرة.

تصاعد توتر العمدة الخليفة، وجد صعوبة في تصديق ما تراه عيناه، فصار يغمغم بما يشبه الجنون ويطلق حلولًا جوفاء.

صدمة الفاجعة ألجمت لسان حاج أحمد، فأضحى تائها في بحر متلاطم، يضرب أخماسًا في أسداس، لا يعرف ماذا يقصد.

همد الضجيج في زوايا القرية وتبلد الوقت واشتد الصقيع تنهد الرجال، وخطفت الحمرة من وجوههم وكأنهم سمعوا بآذانهم الإقرار الإلهي بالكارثة، اغرورقت عيناه بالدموع وارتجف صوته.

بانت الشمس وقبلها اصطبغ الأفق باللون الأحمر، الحالة الجوية آنذاك كانت مروعة، حينها عزم ودالعمدة الهبوط إلى البئر وأن يربط وثاقًا من الحبل حول نفسه.

وحاجة السرة محاولة صده بكل ما اوتيت من قوة، أملًا ألا تفقد أبنائها الاثنين بعدما تملكها الهلع على مصير ابنها، ارتجت حاجة السرة وهي على يقين تام بان ابنها الآخر لا مفر من ضياعه، ورائحة الالم منبعثة من دموعها الآخذة في النزف.

بأعصاب من فولاذ، دنا ودالعمدة بطئ الخطى نحو فم البئر كأنه متردد، غارقًا في تلك الغياهب، اجتاحت الجمع همهمة خافتة.

وبدا يهبط رويدًا رويدًا وهو على غير هدى، تعالت الصيحات والشهقات من الحضور والطرف الآخر من الحبل ممسك به نفر أقوياء

من أهل القرية، وصل إلى أخيه وانتشله، بينما بدأ أهل القرية بسحب الحبل الذي لولا عناية الله، كاد أن ينكرث بهما.

فاحتضنته حاجة السرة وهي تعطيه قبلة الحياة، وشعر العمدة الخليفة بارتياح غامر، والطيب يجيب بصوت خفيض، محاولًا إخفاء مشاعره.

في أحيان أخرى تنهار (الحمامات) وتختلط مياهها مع مياه الأمطار، ويظل قبلة تقصدها الأنعام لترتع فيها، وفي كثير من الأحيان يستعملها أفراد القرية في حوائجهم اليومية، غير آبهين إلى تلوثها، لا بل غير ملمين بنازلتها.

عالقة هذه الواقعة في ذهنه وكأن الأمر قد وقع البارحة.

دلف ودالعمدة إلى غرفته، يتقلب على فراشه، لكن لم يطاوعه النوم، فأخذ يطوف بالغرفة، يتحسس الأدراج والأرائك وهو يحاول أن يلملم ذاته المبعثرة داخل الغرفة الضيقة.

فرنا ببصره إلى سقف الغرفة الذي يقترب من رأسه وضيقها أيضًا.

ما أشبه الليلة بالبارحة، بالأمس كان يتحصن في غرفته الواسعة بالقرية، جيدة التهوية، ذات الخمسة أمتار في الطول والعرض، وسقفها العالي.

عندما هب عليه المكيف، راوده الحنين إلى مجثمه في الليل حينما تنعشه الأنسام الطرية، ورائحة الأصدقاء العالقة في شمراخه في أوقات المسامرة.

كانت العتمة من ألدَّ أعداء بن عمه وهو اعتاد النوم في الظلام، هنا كانت بداية الخلاف، واتسعت الهوة بينهم.

أصبح ودالعمدة كثير الاستيقاظ في جوف الليل، فلم يعتاد ذلك، حتى المصباح الكهربي فهو يتوسمه للمرة الثانية في حياته.

المرة الغابرة كانت في منزل والي الولاية، حينما دعاه هو وآخرون للاحتفاء به.

كانت الطاولة مزينة بشتى أنواع الطعام الصلف وهو يتباهى بنفقة هذه الوليمة من حر ماله.

تلك الأموال الطائلة التي بدَّدها، كانت كفيلةً بحل اعتلالات قريته مجتمعة.

ثمة عمال ينظمون الطاولات، وآخرين يرفعون عقود الإضاءة لتثبيتها، وفود رسمية تدخل وتخرج.

في أون لم تبلغ احتمالاته الغافلة تنبؤ، انقطاع التيار الكهربي، الذي تبكيه لمسة الريشة.

بيد أن عطب آخر حدث في كاميرا التصوير.

لحظة انقطاع التيار الكهربي اصطفى أناس من الرعاع تنتفخ أجنابهم بالسلاح والي الولاية، بعد أن أشار إليهم شخص ما بسبابته في حركة ذات مغزى، خوفًا من مباغتة المتربصين له، فطوقوه وهم يتحسسوا سلاحهم، حيث اصطفافهم حوله مثلت درع بشري.

لاحقًا ناء كتف أحدهم بالرتب تبجيلًا لفعلته، والآخر منح وسام الشجاعة !!!!!.

قتم تأجيل الاحتفاء إلى حين إصلاح العطب الذي اعترى الكاميرا!!!!

طوال سنوات تحصيله العجاف، كان يدرس على مصابيح النفط الباهت، فتشبث بالأمل أكثر، لكونه سيقرأ وقتما يشاء على ضوء المصباح الكهربي ويصير رمزًا للأسبقية.

ازدحمت الأفكار في رأس ودالعمدة وتساؤلات عديدة تكتنف رأسه وتنتابه نوبات من الفزع، كيف يتعامل مع أناس ثقافاتهم وتقاليدهم، مغايرة لثقافته وتقاليده وكذلك اللهجة، راحت فرائصه ترتعد وهو يتقلب على فراشه. نفض عن رأسه كل الأفكار التي تجمعت كجيوش زحمة من النمل.

بعد دوامة من التفكير والعصف الذهني، أحس بالإرهاق حتى استسلم للنوم في خاتمة المطاف.

مع جونة شمس اليوم الموالي، تهجد ودالعمدة للصلاة، ولا تزال المدينة نائمة، حتى بانت الشمس، فارتدى ملابسه التقليدية وهو يهم بالخروج.

قبل أن يخطو خطواته الأولى خارج الغرفة، أصاخ إلى منبه بن عمه في الساعة السادسة وهو يرن مرارًا في سلوك يوم معتاد دون أن يفلح في مهمته التاريخية، التي من أجلها فطر.

ابن عمه يصر رأسه في البقاء مكانه، يقط في نوم عميق كما أصحاب الكهف.

من الوهلة الأولى، لم يملك ودالعمدة الشجاعة الكافية لإيقاظه، لكن تشجع وهو يمد يده ويهزه من كتفه ويصيح بصوت حشرجة خفيض، لكن :

(لقد أسمعت لو ناديت حيـًا ولكن لا حياة لمـن تنادي)حقًا النوم هو الموت الاصغر.

ساعده ودالعمدة على أداء مهمته التاريخية، حيث بذل ودالعمدة كل مساعيه لإيقاظه، كللت محاولاته بالفشل الذريع، صار يهزه بعنف متجاهلًا احتجاجاته الناعسة.

صار ابن عمه يغمغم في غمرة انفعاله وهو صائل وصابٌّ جام غضبه على ود العمدة من على فراشه، يطلق الشتائم من بين أطراف شاربيه.

فزفر ودالعمدة قائلًا:

- أنا ماشي الجامعة، وحأتاخر شوية .

غام وجه ود العمدة وغادر الغرفة، تاركًا ابن عمه قابعًا على فراشه وهو يحاول منافحة فلول النوم، ونوم ما بقي من ليلة البارحة.

خرج من المنزل مع شعره الرطب، حيث فاته تجفيف شعره، وأسنانه هي الأخرى تصطك من البرد اللاسع.

وهواء الزمهرير، يطرد الاكتئاب الذي يلازمه، ويوقظ بعدًا آخر من الحنين إليه، وهو يشعر بقشعريرة باردة تتسلل عبر مفاصله.

أجال يديه عميقًا داخل جيبي الصدار المنتفخين، يتحسس محتواهما، كانا فاغرين إلَّا من يديه وبعض الجنيهات المهترئة نوعا ما.

راح يتفحص الوصف إلى الجامعة، فكان أحمد قد زوده ليلة البارحة بخارطة الطريق، فسار على هدى هذه الورقة، يقتفي أثر العنوان.

لقد بات- لاحقًا- هذا الشارع يعرف وقع خطوات ودالعمدة من

كثرة ذهابه وإيابه فيه.

ساقته خطواته إلى الجموع الغفيرة التي احتشدت في أون انتظار المواصلات.

رنا ببصره وراء الجموع، وبخطوات وئيدة، تحرك ليقف في ذيل الزمرة.

وقف وهو يتكئ بكتفه الأيمن على عمود الكهرباء الذي يغفو مع استيقاظ الشمس، الذي آض آيل للسقوط، واضعًا يديه في جيبي الصدار من جديد، لتوقي البرد، وهو متلفح أهداب الصبر.

مرت نصف الساعة بالتمام والكمال، حتى تورمت قدماه وقتها دأب على انتظار المواصلات، استغرب الأمر، وتهيأ إليه إنه ليس من العادة أن يجد هذا الاكتظاظ، فلابد أن هنالك ثمة خطب ما.

فسأل أحدهم سمج الأخلاق، ولكن قبل أن تخرج كلماته، لمح بأن هنالك ثمة بص آتٍ من بعيد، مكتوب على نهايته (يوم نقول لجهنَّم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد) فركض نحوها لاهثًا، حتى تبعثرت الأوراق التي كان يحملها على الأرض، لعله يفوز بمقعد عليها.

في الطريق الموازي، يتوقف عند ناصيته شخص في زي رسمي، امرأة عجوز، حدباء شاخت عظامها.

والهة متسلبة مذهوبًا بها تتوكأ على عصى ماتزال تضطرب في يدها.

تعزف سمفونية مع وقع أقدامها المتثاقل، وشعرها امتد الشيب ليغطيه، بصوت مبحوح تستغيث الجموع الغفيرة، بتركها الصعود على

متن الحافلة.

تقترب حينا من اليسار، ومن الأمام حينا، وآخر من الخلف دون جدوى، لم يستجب أحد إلى توسُّلاتها حتى ظهرت على ملامحها آيات الإحباط والقنوط .

بعد مضي وقت ليس بالقصير، حظى ودالعمدة بمكان على بص ما، ولكن كان واقفًا، والأدهى والأمر، كان هنالك ثمة أناس تجاوزوا العقد الخمسين وقوفًا معه، والأصعب من بينهم نساء.

في حين أن هنالك آخرين في ريعان شبابهم، جالسين على المقاعد، في وادٍ آخر مع السماعات التي يضعونها على آذانهم.

أسرف ودالعمدة فكره في ألف شيء وشيء، يمني نفسه بأن يكون اليوم استثنائيًا، يكسر فيه حاجز الخوف الذي يعتريه.

فور ولوجه الجامعة اتجهت الأنظار ترمقه خُيل إليه ربما لارتدائه ملابسه التقليدية التي كان فخورًا بها

لم يبالِ بما يدور حوله على النقيض تصاعدت ثقته بنفسه وبتشامخ سار وهو محاكي الطاؤوس في مشيته وافتخاره بذاته. و عيناه تطوف أرجاء الجامعة.

درس في كلية بها إناث بلغن من الجمال درجة لا يمكن تجاوزها أمل كانت إحدى حسناوات تلك الكلية، حين رنا ودالعمدة بنظرة فاذا به يرمق فتاة مطلقة شعرها للريح تداعبه، وتحلم بالحرية والانطلاق، فضاق فكر ودالعمدة عن ورؤيتها جيدة.

فكان مع التي تسير على مقربة منها تدعى أمل تضع وشاحًا أحمر اللون على شعرها، تبث وشوشات الحبور في جنبات الجامعة.

كانت أمل سمراء فاتنة غانية أنفها صغير فمها كبير قليلا ذات أصول أجنبية. تبوَّأت أسرتها مراكزَ اجتماعية عالية.

تحظى بدلال فائق منذ نعومة أظافرها فهي أصغر إخوتها طلباتها لا ترد ولا تؤجل كالسيد المتفضل الذي لا يخالف له أمر ولا يرد له طلب. كان ودالعمدة يكبرها بنحو سبع سنوات.

شبك ودالعمدة نظراته في عينيها هنيهة من الزمان بخيوط عينيها، وتسلقها في حين أزاحت هي عينيها الجميلة بجمال القدس وألف عدو يتمنى احتلالها، كان هو بداخلها يستمتع إليها.

وللوهلة الأولى أحب كلاهما الآخر بشكل عميق غير مسبوق كل منهما لا يجد راحته إلا بقرب الآخر.

إلا أنهما مختلفان في الطباع تمامًا ودالعمدة هادئ لا يغضب في أحلك الظروف، وهي عنيدة تتمادى في عنادها وحادة الطبع والمزاج.

عندما رأت امل ودالعمدة، طرقت باحات الوجد ضجيج الحنين. لديها حيث كان قلبها بكرًا ومشاعرها عذراء لم تطلْها يدُ أحد دق قلبها فجأة بقوة إنها المرة الأولى التي يخالجها ذاك الشعور، وسرعان ما أطلقت تجاهه فيضانات المشاعر المتدفقة بلا حدود.

سارت أمل وهو عيناه تراقب خطاها فقد افتتن بها، لم يستطع أحد أن يسكن قلبه، كما فعلت هي

وغل ودالعمدة إلى القاعة المحددة لحضور محاضراته القاعة كانت تضج بأصوات التعارف فأحدهم يغالي بالتباهي في وصف وظيفة والده ويعيش في جلباب والده ونسي قول الشاعر يوم قال:

إنَّ الفتى مَن يقول هأنذا ** ليس الفتى مَن يقولُ كان أبي !

جلس في القاعة منزويًا، دلف إليه دروب صاحب الشخصية المرحة مقاوم للعبوس والحزن بالرغم أن الأيام طحنته إلا أنه ظل يكافحها بصبر.

في أول الأمر كان عدد أصدقاء ودالعمدة كثيرًا جدًا لا يحصى ولا يعد لكن بطبيعة الحال (دوام الحال من المحال) في خلال شهور ونيفة تقلص عدد أصدقاءه بات عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

كان يرى الجامعة بعين الفيلسوف ينظر إليها نظرة فلسفية عميقة جدًا يتهيأ إنها نموذج مصغر لدولة السودان وتبريره، لذلك إنها حاضنة لكل أبناء السودان بمختلف أطيافهم ومسمياتهم وأعراقهم شمالًا وجنوبًا شرقًا وغربًا، ما أجمل السودان الذي حباه الله بالتنوع العرقي والثقافي والاثني.

خابت نظرته بعض الشيء بعد اصطدامه بالواقع، مثلًا لم يجد مناطق من شرق السودان ترفد الجامعة ببناتها وأبناءها فأنجبت الدهشة لديه وتساءل فلسفيًا، لكن سرعان ما أتاه الرد من أدروب بعد أن ضحك كثيرًا وبسخرية مفرطة، وهو يطلق عبارات الاستخفاف والتهكم على ود العمدة حيث قال بأسى:

بأن المناطق في شرق السودان ما زالت تعاني من وصوب انقرضت منذ العصر الحجري، وإن إنسان شرق السودان يموت جوعًا أو يصاب باعتلالات بفعل الجوع مثل الدرن.

وأضاف أدروب بصوت حاد مع أن شعور بالعجز يتنامى داخله إلا أن صوته خرج قاسيًا وهو يضيف:

من ناحية التعليم فحدِّث ولا حرج المدارس، لا توجد بأسوار فصول متهالكة مكدسة بتلاميذ يفترشون الأرض أخرى مشيدة بجريد النخيل

في وضعٍ مزرٍ للغاية مع دورات مياه غير صالحة للاستخدام الآدمي، من ثم أردفَ أدروب بلهجته الفريدة :

-يعني أنا مثلًا يا ودالعمدة عشان أدخل جامعة كويسة في العاصمة جيت قريت الثانوي هنا في الخرطوم في مدرسة خاصة كمان أهلي دفعوا لي دم قلبهم وفي النهاية اضطروا يرحلو الخرطوم!

كان ودالعمدة يرتأي أنه يعاني لوحده، لكن رويدًا رويدا بعد ثرثرته الدائمة مع الآخرين وجد أن شتى بقاع السودان إنسانها يعاني !!

بعد مضى وقت ليس بالقصير فرغت المحاضرة القاعة التي كانت تعج بالمشاكسين كانت أمل وحيدة تلملم أشيائها المتناثرة من دفاتر وأقلام.

ألقت بنظرة زائغة في آخر القاعة، فاذا بها ترمق ودالعمدة وهو الآخر نيران نظراته تلفحها كان الصمت سلطانًا بينهم وتبادلا النظر قليلًا بحبور حتى امتقع لونه فهذا دليل دامغ لولعها، رانت نفس ودالعمدة وقال في قرارة نفسه:

-لابد من اغتنام هذه السانحة سأكون آثما إذا ضيعتها هباءً!!! شعر وكأن حياته على المحك.

تقدم نحوها متثاقل الخطى متأبط كلماته هي الأخرى، سرت رعشة متدفقة بأوصالها حينما جاء إليها محييًا.

أفرغ ودالعمدة كل مشاعره بين محييًا، واعترف لها بحبه اتسعت حدقاتها حتى بان جماله مرت ثوانٍ كالدهر وعقد الحياء لسانها، لا شيء يذكر في تلك اللحظات إلّا رائحة عطرها المميز الذي يفوح

حديثة الرائع ولهجته البدوية، جذبتاه إليها بكل كيانها ومشاعرها شيئًا فشيئًا أدمنت ودالعمدة حتى الثمالة. في إحدى المرات هجرها ودالعمدة بعد أن قال لها:

بأنها مغرورة شرسة الطباع إضافة إلى إنها أنانية كاشفًا لها مساوئ تنشئتيها وأسلوبها الخاطئ في فهم الحياة، فعصفت بها عاصفة هوجاء تاركة أثرها السلبي على دراستها.

كانت ترى لا يصح لود العمدة أن يعاقبها نظير هراء كهذا، لم تفقْ من غفلتها هذه إلا بعد أن جرت تحت جسرها مياه مشاعر ودالعمدة المتدفقة بلا حدود من جديد، واستعادت الوعكة الاكاديمية التي حلت بها تدريجيًا.

قطع حديثهم وقع أقدام مصعب صديق ودالعمدة، الذي شارك معه السكن لاحقًا بالرغم من اختلاف مشاربهم الفكرية.

ودعته أمل بابتسامتها المعتادة التي تدفع إلى الجنون.

انتهى يوم ودالعمدة الدراسي الأول لمعت في رأسه فكرة أن يأخذ جولة في العاصمة الخرطوم، لاسيما يتعرف عليها أكثر ويروي ظمأ الشوق والعروق المبتلة.

كان ذلك اليوم ذا ثراء استثنائي لود العمدة فخرج من الجامعة أصيلًا، فقال له مصعب:

- ماشي وين يا ودالعمدة ؟؟

أجال ودالعمدة يديه عميقًا داخل جيبي الصديري ثم أردف:

– ماشي اتفسح ساي والله يا مصعب وبالمرة أرسل جواب لي أهلي.

قطب مصعب حاجبه، قال والحيرة تبدو على نبرات صوته المتلعثمة، وملامحه وجهه الشاحبة:

– ياود العمدة الناس خلت الجوابات دي، وبقى في حاجة اسمها تلفونات!

انفجر ودالعمدة بالضحك قائلًا:

– حلتنا ما فيها شبكة لسه التكنولوجيا دي ما وصلتنا !

بانت الحيرة أكثر على مصعب وتراقصت الدهشة على محياه وهو يقول بصوت موهن :

– معقولة في مكان لسه مافيهو شبكة ؟؟ أنا قبل فترة قريت في الجرايد إنه الشبكة غطت كل أرجاء السودان.

فرد عليه ودالعمدة بصوت حاسم وهو يزفر قائلًا:

– براك قلت كلام جرايد !

فضحك الاثنان معًا، وسأله مصعب أن كان لا يمانع من مرافقته فهو الآخر يود أن يبتاع حذاء جديد فرحب ودالعمدة بذلك.

ألجمت الدهشة ودالعمدة، حينما طلب صديقه من صاحب المحل حذاء مقاس 40 وهو مقاسه لا يتجاوز الثلاثين فتنهد مصعب وأردف:

–حتى يبقى معي إلى نهاية سنواتي الدراسية!!!!!!

بعد مُضي وقت ليس بالقصير عمل مصعب وودالعمدة في مصنع بدوام ليلي حتى تسد رمقهما ويجابها بها نفقات الدراسة.

في كثير من الأحيان تسوقهم الظروف للبقاء مستيقظين ليلتين متتاليتن بعد أن أضنكتهما المسغبة، وهما يسلكان مسلك سائر فتيان القرى في العمل والاعتماد على النفس انفرد ودالعمدة عن صديقه نسبة لسعة الوقت وصفاء القلب راح يجوب الخرطوم، وفكر أن يشتري أرخص هدية يرسلها إلى أهله مع الجواب وبعد أن أسرف فكره، وجد أن أرخص هدية هي التأمل في العاصمة الخرطوم، فدس في الجواب صفحتين عن العاصمة الخرطومالذي كتبها بخطه الأنيق المنمق من دون إسراف في زخرفة الكلمات باعثًا إياها عبر الأثير إلى أسرته.

في ساعات النهار الأخيرة من ذلك اليوم الأغبر، كانت الشمس تبث سخونتها فقد بلغت أعلى مدى لها الشمس تصب لهبًا فوق رأسه، والعرق ينفصد من جبينه.

كان ودالعمدة واقفًا تحت أشعة الشمس الحارقة، يُطيل النظر إلى المارة أناس كثر في أسمال بالية

الشوارع مكتظة، فالعاصمة الخرطوم في أوج ذروتها، والشمس تصب لهبًا فوق رأسه، والاختناقات المرورية تعم أرجاءها، رفع بصره نحو الباعة المتجوِّلين، يرتدون ملابس رثة وآخرون يطلبون العون بيد أن ملابسهم بلغت نقطة من الرثاثة لا يمكن تجاوزها، لفت انتباهه أحدهم قائلًا: ادينى من حق الله يا زول، وآخرون قابعون على الأرض بمحاذاة الخـضروات. يداعبونها برذاذ الماء بين الحين والآخر فوضى عارمة مصدرها افواه (الميكروفون) الطريف في الأمر نفس الحبال الصوتية في

كل ميكروفون.

هناك على بعد 50 مترًا من مكانه بائعات القهوة فتوجه صوب أحداهن، وكان اختياره لها بمعايير سائر السودانيين، أكبرهن سنًا تجيد صناعة قهوة طيبة المذاق

لبث مكانه حتى أتت (حافلة) مكتوب في نهايتها (مفطوم اللبن ما بسكته اللولاي) توجه صوبها بخطى ثابتة.

تقاطرت جموع (الركاب) قبالتها حتى خُيل إليه أن باب الحافلة أضحى كخرم الإبرة سرعان ما تراجع وكرَّ عائدًا أدراجه. تكرَّرت محاولاته مرات عديدة، ويعود بخفي حنين إلى بائعة القهوة حتى انتزعت منه خمسة جنيهات مقابل كل كوب ارتشفه.

بعد برهة من الزمان صاح أحدهم كزئير :

- تلفوني اتسرق !

فامتسك الناس طرف الخيط غارقين في تحليل سرقة التلفونات تحليلًا اجتماعيًا وآخر ثقافيًا، ويكاد يجزم ألَّا علاقة لأحدهم بكلا المجالين، لا من قريب ولا من بعيد.

استغرقوا في الحديث ساعات وساعات وفي خاتمة المطاف اتفقوا على أن تلك الظاهرة نمت بفعل الأزمة الاقتصادية، وأطلقوا عبارات الوعيد للسارقين.

ودالعمدة في قرارة نفسه عزم الصعود على متن الحافلة الموالية قبيل التفكير بتأني حضرت الحافلة فركض خلفها لاهثا كان سابقًا للبقية،

فاقتعَد المقعد الخلفي(كنبة شكرًا) بجواره مكث طلاب يتجادلون مع (الكمساري) في تعرفة التذكرة، وبعد شدٍّ وجذب أخذ نصف التعرفة، وهم على محياهم مرسومة فرحة النصر. كانت (الحافلة) تالدة بتقادم العهد

وزع ودالعمدة نظراته خارجًا عبر النافذة، وهو شارد الذهن مباني عتيقة شاهقة الارتفاعات، أضحت آيلة للسقوط بعد أن مارس الزمن عليها فعله، أبواق السيارات تصدع رؤوسهم بين الفينة والأخرى.

نشب خلاف بين (الكمساري) وأحد الركاب وبعصبية مفرطة زفر قائلًا للكمساري :

- رجع لي الجنيه يا حرامي!. اشتطاط غضب الكمساري وحدثت مشادات كلامية، كادت أن تؤدي للاشتباك بالأيدي. اتفق الركاب بالإجماع على جهل الكمسارى واستغلاليته لها، واتهم بعدم معرفته للحساب نظر إليهم سائق الحافلة قائلًا:

-ربما يعد أفضل من الكل فهو خريج كلية الطب حوجته الماسة للماء أجبرته على هذا الشقاء!

خيم صمت في الحافلة وطأطأ وا رؤوسهم وخفضوا أبصارهم، كيف لا وحلم كل أب أو أم سودانيين أن يصير فلذة أكبادهم مهندسين أو دكاترة، يتهجدون الليل قيامًا من أجل ذلك.

عاد ودالعمدة بناظره خارج الحافلة سارحًا في بعض مشاغله، وتتأرجح إلى خياله صورة أمل، استوقفه صوت آخر داخل الحافلة وهو

يصب جام غضبه على السائق، فهو يريد النزول امام منزله، وليس أمام المحطة نزل وهو يغمغم متذمرًا !

انطلقت الحافلة من جديد وساد هدوء نسبي داخلها فاستيقظ أحدهم وقد كان يقطُّ في نوم عميق تجاوز على إثرِه محطَّتَه فنزل متحسرًا.

بعد زهاء ساعتين وصل ودالعمدة إلى غايته المنشودة، بينما كان آخر يتلصَّص بعينين ذابلتين، ويسْترق السَّمْعَ بأذنين طويلتين لكلماتٍ هامساتٍ من شَفَتَيْ حسناء قابعة بجواره يجتهد حثيثًا لتجميع أحرفٍ متناثرات يذروها صوتُها الخفيض !

ودع الكمساري ودالعمدة بابتسامة عريضة على أمل الالتقاء مجددًا يطليه هذا المشهد تقريبًا كل يوم

دلف ودالعمدة إلى غرفته ولم ينطق ببنتِ شَفةٍ مع أحد ارتمى على فراشه كجثة هامدة ثم غطَّ في نومٍ عميقٍ.

مضى الليل إلَّا أقله لم يبقَ من سواده شيئًا إلَّا بقايا أسطر، يمكن أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليه استيقظ العمدة الخليفة منهكًا واهنًا، يشعر بمس من النعاس يجتذبه لينسج من خيوط الفجر حكايات طقوسه الدينية والمسبحة ذهابًا وإيابًا بين أصابعه، يستغفر وهو يغمغم بصوته الدافئ وضراعاته التي تتموج لحوحةً صوبَ عنان السماء حتى تقيه غوائل الدهر ومكر الماكرين له سندًا ولا عضدًا، غيرها نالت منه شطرًا من حياته، يشكو هما من هموم الحياة أو رُزًا من أرزائها.

يكون بمعزل عن الأسرة لحين ينبثق نور الفجر، والطيور تغرد في أفنائها بنغمات عشق سرمدي والسديم يتردد في أجوائه!

لبث على ذلك برهة من الزمان حتى نمت إلى مسامعه صوت طرق خفيف في الباب في الفينة بعد الفينة أخرجه من السكون مناداة اعتاد عليها:

_ يا العمدة الخليفة

في أول الأمر خُيل إليه أن ما يطرق هو منزل حاج الصافي المتاخم لمنزله، لكن بعد طرقات عديدة أخرى استيقن أن المقصود هو منزله، فانتفض متثاقل الخُطى من (العنقريب) الذي بدأ يعزف لحنًا باكيًا، وكأن حالة الخشوع التي تنتابه قبل قليل ولت دون رجعة.

ذهبت به الظنون كل مذهب دهش قليلًا في أول الأمر، وارتبك وارتاع لعلها نازلة من نوازل القضاء أو صدمة من صدمات القدر.

- خير اللهم أجعله خير منو في الباب ؟؟؟

أتاه الرد من الطرف الآخر:

- أنا ساعي البريد يا العمدة

العمدة :

-مرحبًا حبابك ألف

سار متضعضعًا متهالكًا مشى إلى الباب يسوق نفسه سوقًا حتى بلغه

ابتدر العمدة الخليفة الباب الذي تهرأ مسرعًا، وصدأت مفاصله، فلم يعد ينغلق أو ينفتح بيسر أصدر صريرًا أيقظ كلَّ ساكني القرية من مهجعهم.

ولج ساعي البريد إلى صالون العمدة الخليفة، يرتدي قميص فضفاض يموج فيه بدنه موجًا

تلاعبت على شفتيه ابتسامة متعبة وهو يبادر بالسؤال عن حال. العمدة استطرد العمدة الخليفة قائلًا:

-الحمد لله في نعمة من فضله، وما زالت عبارات الترحيب تبرح شفتيه، وأردف:

- تشرب شنو ؟؟؟

اعتذر ساعي البريد شاكرًا فاشتطاط غضب العمدة الخليفة وهو بعنفه، والغضب مبلج في نبرات صوته القاسية :

– داير تطلع من بيتي قبل ما تشرب حاجة ؟!! داير الناس تشيل حالي؟!!

راح يقدح ذهنه ويقلب الأمور في رأسه لعله يجد حلًا، لم يكن يحفل بشيء من أمره، ربت ساعي البريد على كتف العمدة الخليفة، وأردف ردًا امتص غضبه وحنقه وسكن ثائره و بردت جوانحه.

– العفو يا العمدة بس كمان عندي جوابات داير أوصلها لي أهلها واطمنهم زي ما أنت هسي، حتتطمن على محمد الخليفة

أجال ساعي البريد يديه عميقًا داخل حقيبته، ثم أخرج جوابًا فكأنما عمد إلى سهم رائش فأصم به كبده وهو ينظر إليه نظرةً عذبةً صافيةً، وأضاف:

– الجواب دا من محمد الخليفة.

وجد العمدة الخليفة برد الراحة على صدره، وعملت على تهدئة خواطره لبث شاخصًا إليه هنيهة لا ينطق ولا يطرف فقال إلى ساعي البريد :

– لو كدا معليش نسمح ليك تمشي.

انصرف ساعي البريد، بعد أن أخذ بعض الجنيهات من العمدة الخليفة، وسلمه الجواب وأدبر إلى حال سبيله يتصفح وجوه الرزق. بعد أن جرى بينه وبين العمدة حديث قصير عرف فيه من هو ومن أهله.

صاح العمدة الخليفة، وأصدر صوتًا كزئير الأسد :

– يا الطيب أمشي نادي حاج الصافي عشان يقرأ لينا الجواب المرسلة

أخوك.

سمعت حاجة السرة أمر الجواب، كانت تمشِّط شعرها، فأردت ما كانت تحمله في يدها، وأصبحت تهرول كالرياح الموسمية حافية القدمين نحو صالون العمدة الخليفة يتلقفها ثوبها الوثير كانسًا الدرب. خلفها فاشتبكت بالطاولة فسقطت أرضًا أحدث سقوطها دويًا يكفى لإيقاظ الكهف، وأهل الكهف وبرشاقة فتاةٍ مراهقةٍ. نهضت في وثبة واحدة وزادت من حركتها كعداء يركض بسرعة فائقة، ليفوز بالسباق حتى تصاعد إحساسها بالوهن، وأردفت قائلة:

- وينو الجواب يا العمدة ؟

وما زالت أنفاسها اللاهثة تتصاعد، وأخذت دقات قلبها تتسارع وهي في انتظار إثابة العمدة الخليفة، وهي تمسك بين أهداب عينها دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك.

انفجر العمدة الخليفة، وهو يلتفت نحوها، وهتف ناهضًا ككتلة من النار تتدحرج.

- يا ولية خلي الشفقة، البشوفك، بتسألي عن الجواب بقول بتعرفي تقري، وتكتبي!

كانت سترد على العمدة الخليفة ردًا سيقع عليه كالصاعقة، لكن صوت حاج الصافي وصل قبل كلماتها، وصدى وقع أقدامه المتثاقل يقترب أكثر فأكثر، وهو يردف قائلًا :

- السلام عليكم، ويصفق في يديه.

بطل اتهام العمدة لزوجته بعدم الصبر، فهو الآخر لم يستطع التلفح بأهداب الصبر، فاستقبل حاج الصافي في بهو (الحوش) وبادر بإعطائه الجواب قبل الشروع في السلام، وتبادل التحية وهو متجهم الوجه، بينما حاجة السرة لم تتحرك ساكنة، ولم تقم بشيء سوى تعديل ثوبها، وتغطي شعرها المنظوم في ضفيرة واحدة مسدلة على كتفها.

قدم الطيب كوبًا من الشاي الساخن إلى حاج الصافي، الذي تناوله بامتنان .

العمدة الخليفة حينما نال منه الجسد سقط على كرسيه وأردف:

-معليش ياحاج الصافي، اقرأ لينا الجواب في الأول، عشان نطمن على محمد الخليفة .

- جدًا يا العمدة .

افترشَ حاج الصافي اليابسة جلوسًا، وقبل الكوب المتصاعد البخار، واتكأَ على الحائط يكبُّ بوجهه على الجواب وراح يقرأ صاخبًا :

(لا اعرف ماذا اكتب، أحاسيس غريبة ترجرج جسدي من الداخل وتقشعره من الخارج .

حقًا افتقدكم ، افتقد هدوء ساحات القرى وقت الظهيرة والتجوال تحت المطر، والنهاريات المغطاة بالغيوم ،خوض الأزقة المظلمة في الليالي الباردة باحات الوجد تطرق ضجيج الحنين، وأمكنة بعيدًا عن زعيق السيارات التي تخرج مسرعة إلى الطريق ، في العاصمة الخرطوم وهي تتبدد كالدخان مخلفة صدى محركاتها النابح، وأبواقها تصدع رأسي من

حين لآخر، وحينما أُغمض عينيَّ، تطل علي تقاطيع أهل القرية وشُعُورهم الشُقْر، وملامحهم تعلوها ابتسامات غامضة)

بعد قضاء أيام مشرقة في العاصمة الخرطوم وليالٍ ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين وهي ترسل مع نجمها بريقًا يخطف البصر ويخلب الألباب حتى ينبثق نور الفجر، فسرعان ما تحررت أناملي لكتابة جميل تلك المدينة الطنانة ذو الثراء الاستثنائي، وعن فيروسها المشاغب الذي لازمني منذ أن وطأت قدماي أرضها، وأنا أمشي مشية الذاهل الحائر، فألهمتني بجمالها.

كانت جميلة ذلك الجمال الذي يواطئ الإنسان في حالة الرضا عن نفسه، فعلًا إنها مدينة رائعة، اللذة في فجر ابتسامتها، عيناها تشعان بريقًا أخاذًا .... لكنه دون أن تستطيع المقاومة يجذبك إليه، كأنها خارجة من كتاب المدينة الفاضلة.

رقص فؤادي طربًا بعناقها ، وتحن لقائك حنين الظامئ للورود.

فاتحة صدرها في حنان لكل أبناء السودان، متنوعة في وحدتها أو متوحدة في تنوعها، هجين لأسلاف عرب وزنوج تمازجوا حتى اندثرت بينهم الاختلافات.

في العاصمة الخرطوم ينام القمر والناس مستيقظين ، مستضيئة بهالة العمران الذي يعتريها، وأنا أظل تائها في ليلها من غير قمر، غارقًا في حكاياتها ما بين جونة الشمس وغزالتها، ومنظرها الضارع يذوب نفسي القريحة بين أضلاعي ذوبًا، حتى عقد الود بيني وبينها عقدًا لا يحله إلا

ريب المنون . وفي كثير من الأحيان لانزاح عن تلك الرتابة، أجوب الخرطوم طولًا وعرضًا في نهريها الحافلين بالبراءة، وأُلقي بعيني نظرة دامغة نحو المباني شاهقة الارتفاعات، اتصفح وجوه الغادين والرائحين، هكذا كان شأن صباحي ومسائي.

ويطيب لي المقام في مقرن النيلين

انصح أي إنسان يصاب بسوء في حالته النفسية، أن يزور ملتقى النيلين أو يسوق خطواته في شمس العاصمة الخرطوم الغاربة بنورها الساطع، ويراقب المغيب كأنه شروق، إلى شارع النيل حين يلتقي النهاران الكبيران، يشكلان نهرًا واحد اسمه نهر النيل، المقاوم للحزن والعبوس يطير صيته، شهرته التي طبقت الآفاق، حيث الناس في هرج وضجيج والمرح في عيون الصغار، ومأوى يسكنه لفيفًا من العشاق المتآلفين، يغرقون بهمس حافل بالوعود، ويضحكون بضحك معربد، وأن يشرب من ماء النيل، سأضمن لكم أن يسكن ثائره وتبرد جوانحه ويظفر بطائلها .

الناس فيها لا تنقشع حيرتهم ولا يغيض ينبوع قلقهم .

كل الأحاجي التي سردتها تلامس الواقع، وليست محض خيال، فالخرطوم أنا أنقل لها، لا أنقل عنها ،أمسياتها ترشح بالهناء

أبي التمس لي العذر، فلم تستطع وصف جمالها هذا، أو أنك لم تشهد عمرانها هذا، فالخرطوم صورة الأُنس بعد الوحشة، والنور بعد الظلمة.

أنا لا أندب الماضي، لكن لم تزرها منذ عقود خلت ، أصبحت متسعًا للغوياتٍ جديدةٍ ومتسعًا لاجتراح صداقات جديدة، حتى إنها صبغتها

كل الألوان؛ الساطع منها والقاتم ، فهي أكبر من أكبر خيال، وبلغت من الجمال نقطة لا يمكن تجاوزها، وكما يقولون:

من رأى ليس كمن سمع ، لذا نهرت قلمي الذي لم يتثاقل في النقل عنها، بالرغم من قناعتي الراسخة بأن الكتابة عنها تختزل جمالها الذي لا تخطئه العين .

لولا سفري للخرطوم لضاع صوابي!!!!!

فقد بات حلمي الآن أن أُقضي ما تبقى من حياتي بجانبها، فهي حية في وجداني تعتلج أضلاعي) .

فرغ حاج الصافي من وضر الجواب ، مكنه وضوح الخط من قراءة الجواب بيسر، حاجة السرة استيقظت من غفوة طويلة، أُصيبت بدهشة عميقة، نسيت أن تتنفس وهي تصغي للجواب، وأفسد مزاجها كما يفسد الخل العسل، وقلبها يرتعش لود العمدة الذي أعلنها داوية.

فقد أصبح حلمه أن يفني أيامه الباقية في العاصمة الخرطوم ، على نقيض أحلام والدته.

أنها تصاريف القدر، أحلام الكهول لا تعجب الشادخين، وأحلام الشادخين لا تعجب الكهول لذا لا تتحقق الأحلام !!!!!!

نظر كل منهما إلى بعضهم البعض يبحث في عيون الآخر عن تفسير أو توافق الاستغراب .

قبعت حاجة السرة خلف الصالون يجتاحها حزن عميق كحزن الثاكل لوحيدها.

لدقائق وهي تحاول أن ترتشف من سلسبيلها الحكمة، مصابة بالذهول، تعبث بأناملها على أهداب الفستان .

تنظر إلى السماء ، حيث بقعة من وميض الشمس تلوح في الأفق ، تزوغ نظرتها أحيانًا، وأحيانًا أخرى تتبع القماري في طيرها ولهوها.

شعرت بقشعريرة باردة تتسلل عبر مفاصلها، ونكص قلبها بشدة إنها المرة الأولى الذي يخالجها هذا الشعور،

ألقت بنظرها من جديد نحو العمدة الخليفة، وبنظرة هازئة تفَّرست في وجهه لعلها تقرأ تطلعاته وآماله هو الآخر، لكن كان وجهه صفحة خالية من التعابير، حيث قال وهو يحاول إذابة جدار الصمت:

– معليش يا حاج الصافي اشرح لينا الجواب دا.

صار حاج الصافي يقرأ الجواب من جديد رويدًا رويدًا، ويشرح الكلمات غير المألوفة لديهم .

بعد مضي وقت ليس بالطويل انتهى حاج الصافي من مهمته هذه، وقدم إليه العمدة الخليفة كوبا من الشاي الساخن، تناوله بامتنان، وثرثر مع العمدة الخليفة عن حالة الطقس وانهلال المطر، وحديث الساعة .

بينما حاجة السرة كانت أكثر صمتًا، كفَّ قلبها عن الخفقان وهي تركز بصرها صوب الطيب، الذي كان نسخة مصغرة من ذاك الغائب النائي عنها حنت إليه حنين النُّوق إلى فصالها، ومازالت جراحات الاشتياق والحنين لديها نازفة، وإذا سرت إليها نسمة، وجدت ريح ولدها فيها شيئًا ما نما بداخلها لعقد مقارنة بين هذا وذاك حتى أضحت شاردة الذهن

تذوب أسفًا، وراحت الأسئلة تتفجر في رأسها بلا أجوبة، إلى حين غادر حاج الصافي، تاركًا جرحًا غائرًا نازفًا لديها ، وامتقع لونها، فسار هو وعيناها تراقب خطاه، والدهشة ملازمة لها، إلا إنها هادئة في تصرفاتها.

لم تفق من شرودها هذا إلَّا على صوت العمدة الخليفة وهو يقول:

– أها يا السرة كدا اطمنتي علي ولدك دا ؟؟؟

نطقت بعض الجمل السريعة بصوت واضح، لكن لم يفهم الكلام الخارج من شفتيها بلسان غريب.

صمتت حاجه السرة برهة طويلة ومن ثم نطقت كفرًا وصوتها يختنق بالبكاء:

–كيفن اطمن، أنا كدا قلقت أكتر، الولد دا معنى كلامه ما عايز يرجع البلد ، ولا حيعرس بت خالته، ونكص قلبها من جديد!

العمدة الخليفة شعر بأن الأرض من تحته تدور وهو يحك رأسه الأشعث بسبابته، دون أن يفلح في ترميم ما فعله ابنها لها وهو يجد نفسه أمام واقع لا مفر منه .

قال العمدة الخليفة بنبرة حادة مع إن شعور بالعجز يتنامى داخله :

– حيرجع البلد، دي فترة وحتعدي

وهو معنيٌّ بالأمر ولكن هز كتفيه كأن الأمر لا يعنيه .

بدوره سرح العمدة الخليفة ، بعد أن أصابته عدوى الاكتئاب من حاجة السرة ، بفعل كلمات ابنه الهَذِرة، وارتأى أنه يتشدق بهم، وخُيل إليه أنه يتحدث كالنَّغلِ والمُنْبت الذي أضاع تقاليده وهبط بها من علياء

مجدها حتى التصقت أنفها بالرغام .

تمنى لو كان ابنه أمام ناظره، لكان علقه على سقف الصالون من أرجله ، وأمطره بوابل من الضربات بالكُرباج الذي يرتجف له العدو لأنه كتب إحدى النكبات العظام والرزايا الجسام، لكن لا يستطيع أن يبوح بذلك أمام والدته لعلمه إنها شديدة العاطفة؛ تبكيها لمسة الريشة، فهنالك ثمة أشياء في الحياة لا تحلها عواطف الأم بل تحتاج إلى حكمة الأب.

كان وهو يرتشف الشاي يحملق فيها، لاحظ العمدة الخليفة شرودًا على زوجته لم يعهده فيها، وفي كثير من الأحيان يحاول العمدة الخليفة جاهدًا مواساتها بشتى الطرق، تداعت الذكريات إلى ذهنه بالرغم منه كطوفان كاسح راحت تجتاح كل تفكيره، ألقى بنفسه في عميق نظراتها فاستشعر لذة فاقت قدرته على الاحتمال.

وقتها تذكر الأيام الخوالي ونزوات تعاود قلبه من حين لآخر، حينما كانت تجوب القرية بثوب والدتها واخذت فكر الصبا، تلك الوردة الناضرة التي كانت تملأ الدنيا جمالًا.

كانت الشمس تنحدر إلى مغربها تلبد العمدة الخليفة وهو يتوارى خلف باب حاجة السرة، وهو يسترق النظر خلسة حتى أتت ما كان ينتظرها بوجل، وتبادلا الحديث وعيناها كانتا تشعان ذلك البريق الذي يأخذ بألبابه يجعله راغبًا في إلقاء نفسه في أغوار تيْنِك العينين، ترسم على شفتيها المكتنزتين تلك الابتسامة الآسرة.

تربص له سائر أبناء عمومتها، ونصبوا له كمينا محكمًا وأمطروه بوابل

من الشتائم والكلمات اللاذعة واللكمات، حتى سقط متكوِّر من الألم، حتى كاد أن يغشى عليه، وفي خاتمة المطاف أطلق العمدة الخليفة ساقيه للريح تداعبهم فتبددت قواه في ثواني، وأمسكوا به من جديد وحملوه وهو تحت وطأة الألم، وأقسموا بكل مقدساتهم أن يتم تزوجيهم بأي ثمن.

وتم عقد قرآن العمدة الخليفة على حاجه السرة، وكان الثمن أن باع المائة فدان التي يمتلكها.

خبر ضرب العمدة تم كتمانه، وان انتشر في مجالس قليلة ثم هب كالريح في كل البلاد.

استيقظ حبه لها بعد سبات طويل، إنها نفس الروح التي لطالما أحبها، يكمن الفرق في قوامها المترهل بفعل ذرية وهبتهم إياه، ووجها الذي مارس عليه الزمن فعله، فظهرت التجاعيد بعد أن دارت عليها الأيام دورتها.

فأدبر العمدة الخليفة يقول بإسهاب عن تلك الأيام الخوالي، ويستعيد ألق الضحكات القديمة، يعبر عن حبه لها بكلمات عطرات.

اقترب منها حتى كادت تلتصق به، لفحت أنفاسها عنقه وهي تهمس:

- ياراجل اختشي أولادك بقوا بي شنباتهم!

هي الأخرى ابتسمت ابتسامة ساخرة، وهي تلقي نظرة طويلة عذبة صافية، لم تسترجعها إلا مبللة بالدمع مع أنه ضعيفة مستطيلة، تستعيد بعض الأحاجي التي أكل عليها الدهر وشرب، فقال لها العمدة الخليفة:

- ماشاءالله عليك، لسه شباب والله، جريك القبيل دا، الشفع ما

بجروا زيو !

رمى العمدة الخليفة سهامه في منطقة بالغة الحساسية، فكأنما عمد إلى سهم رائش فأصم به كبده، بعث السرور إلى قلبها وهدأت الثورة التي كانت تعتلج أضلاعها، وأصلح ما أفسده ابنه بحنكة .

عقد الحياء لسانها، وأردفت قائلة هربًا من هذا الموقف، وهي تمسك بين أهداب عينها دمعة مترقرقة ما تكاد تتماسك وهي تتأهب للانصراف :

– أنا ماشة أعمل الفطور زمنه قرب .

مرت ستة أشهر على ود العمدة وهو مدفونًا بين صفحات الكتب، لقد صبغتْ الحياة الجديدة عليه فرحًا غامرًا، يستيقظ والليل ما يزال مطبقًا حينما يرن منبه ساعته غالية الثمن، التي أهدتها إياه أمل، فهو الآخر أهداها كل وقته .

نهاره كله في الجامعة، ثم لا يلبث يبعث بجواب إلى أسرته متى ما سنحت له سانحة.

ليله في غرفته يعد محاضراته، يدون هوامشه، يحادث أمل بالتلفون يغرقان بهمس حافل بالوعود.

في أيام العطلات، غالبًا يقضي أوقات ما بعد الظهيرة في النوم، تمر عليه الأيام متشابهة، يتحصن في غرفته ولا يلتقي بالعائلة إلا في أوقات الوجبات، فكان لا يراه الرائي إلا ذاهبًا إلى الجامعة أو عائدًا منها.

وفي كثير من الأحيان حينما يعود، يجد الأستاذ الخاص، يدرس أبناء عمومته في الغرفة ، فيتجه صوب السطح الذي يرى من خلاله شاطئ البحر المتعرج برماله المتسخة التي يتقاذفها البحر على ضفاف اليابسة، فيسرف خياله في رمال القرية التي لا تعمل على اتساخ الملابس، وصدى الذكريات يقوده إليها حينما كان يرسم عليها بأنامله بسجية الأطفال برموز مبهمة، وفي أحيان اخرى يمزجها بالماء، ويشيد بها منزل أحلامه

الذي يتطلع له بفن جميل، فالأطفال بسجيتهم مهندسين ما أروح ذلك .

فأحلام الذي ينام على الحرير، هي نفس أحلام الذي يفترش الأرض، ما أعدل الأحلام !وما أجمل الحياة بعيون الأطفال، الحياة بعيون الأطفال أحلام لاحقة ، حلها فاصل زمني

يتأرجح على خياله وجه أمل وصوتها حينما يقول لها شيئًا وترسم على محياها ابتسامةً كأولِ غيثٍ تدلق بعده ضحكتها الريَّانة الندية .

لقد أفرد لها مساحة طويلة من حياته ، يظل مستيقظًا الليل بطوله في محادثتها ، إلى إن ينام على صوتها وهي تتمنى له أحلامًا سعيدة .

ذات مساء بعد هدأة الليل زار عمه الغرفة ، وكان وقع أقدامه يدب الفزع في ودالعمدة فتململ في جلسته، وعمه يتفحص الغرفة جيئة وذهابًا كما البندول البسيط.

مرت لحظات كالدهر، فاتجه عمه صوب البلكونة، فوجد أعقاب سجائر مطفأة دهسًا ، لم يكف عن طرح الأسئلة وبلا سابق إنذار، كانت تُشير أصابع الاتهام لود العمدة إلى أن اتَّسعت دائرة الاتهام وضمت ابنه الأكبر، الذي بدوره حلف بأغلى ما يملك إنها لا تمت إليه بصلة، لكن ظل هو المتهم الأول إلى حين أمسك عمُّه ابنَه متلبسًا، وهو يأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته، فانقلب السحر على الساحر ولا يدري ماذا يفعل، فكيف يعاقب ابنه على ما علمه إياه، حيث كان يرسل ابنه ليبتاع له السجائر، ويقول له ممازحًا خذ نفسًا منها !!

بعد مرور شهران آخران، أسر عم ودالعمدة إليه بكلمات ألجمته،

وتراقصت الدهشة على محياه حيث قال:

– طبعًا يا ودالعمدة نحن حنسافر برة السودان، جاني عقد عمل، والبيت دا أنا اجرتو لي بنك لأنه موقعه ممتاز، وحيجيب لي دخل كتير !

ألجمت تلك الكلمات ود العمدة، فقطب حاجبه وفي عينيه كل علامات العجب والاستفهام التي يمكن أن تخطر على بال أحد، يحاول أن يجمع أشلاء لسانه الذي تناثر في الهواء تحت وقع كلمات عمه وسحابة سوداء تهبط فوق عينه شيئًا فشيئًا احتجب عن ناظره كل شيء.

لا يدري هل كف بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينه فهو لا يعرف له سندًا ولا عضدًا ، جاء صوته مضطربًا وهو يقول :

–تصلوا بالسلامة إن شاء الله، أنا أصلًا كنت مفكر أمشي الداخلية لأنها أقرب لي.

وشكر عمه على طيلة فترة ايواءه وسأله الصفح والغفران.

وعلى مضَضٍ حمَل أحمد عتاد ودالعمدة ليودعه سكن الطلاَّب الداخلي، لم يكن يحفل بشيء من أمره.

اعتلى أحمد سيارته الشعثاء كانت مغبرة، بالية المقاعد.

ودالعمدة مكث بمحاذاته يتداخله الهم واليأس، وهو في هذا العالم طريدًا ، وقطرات من الدمع يسكبها من جفنه، لبث على ذلك برهة من الزمان .

في نحو نهاية الأصيل تحركت السيارة (الفلكسواجن)، فاعتلت الأسفلت تدب على أطرافها حتى تعلو صدره.

مالت السيارة الى اليمين ميلًا شديدًا، وبصعوبة بالغة استطاع ان يعيدها الى الطريق، والأسفلت هو الآخر اشتاق لمعانقة صغيرة ابن عمه من جديد، فهو فاتح صدره لشتى أصناف السيارات الحديثة منها، والتليدة وصغيرتهم كانت إحداهن.

أرهقتها بلاد العم سام تحت وطأة الألم من ويلات النازية، كان التعب قد بدأ يأخذ منها كثيرًا، فبدأ التوجه الكاسح لها في بلاد السودان وسائر البلدان العربية.

لبرهة من الزمان، أسرف أحمد فكر في بعض مشاغله، وهو يمسك مقبضها بإحكام، وودالعمدة يجرجر بصره نحو الطريق، وذهب بخياله إلى حيث شاء أن يذهب .

نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر لمغربها، ونسمات الهواء البارد تطرد الاكتئاب الذي يلازمه منذ ليلة البارحة فتناهى لمسامعهم عبارات الإطراء لتلك الصغيرة، بعبارات لم يستطيعوا تمييزها لارتفاع صوت هدير السيارة، لكن سرعان ما تكدر مزاج ابن عمه بفعل أحدهم، وهو يصب جام غضبه على صغيرته حتى ضرب سيارته المغبرة، فعلمت أصابعه الخمسة وبان تحتها لونها الأحمر الأخاذ.

كان يظن أنها فيروس مشاغب لابدَّ من استئصاله ، على عكسه تمامًا آخر أجذله مشاغبتُها الطفولية وهي تترنح في الطريق، ولكن في حقيقة الأمر هي مراهقة متأخرة.

فصغيرتهم هذه عجوز شمطاء لا يدري أحد عمرها الحقيقي على وجه

التحديد، ولكن شوهدت في منتصف القرن الماضي، وهي تحارب مع هتلر في الحرب العالمية.

الجدير بالذكر أن هنالك ثمة حسناء وقفت على مقربة من الصغيرة في أون استئناف شارة المرور، وقد خنقتها عبرات الدخان الآخذة في النزف من هذه الصغيرة شديدة النواح، فأمطرتهم بوابل من الشتائم.

انزاح احمد عن تلك الرتابة ، بتشغيل مسجل صغيرته، الذي يصدر الضجيج ومازال يكدح بعد أن مارس الزمن عليه فعله كما صاحبته التليدة،

ران الصمت عليهما حتى لاحت الداخلية من بعيد.

كانت الشمس تتهادى للمغيب محمرة الوجنتين، السماء ملبدة بالغيوم وحبيبات المطر تنساب بشكل هندسي على زجاج السيارة، فوقف برهة من الزمان يجترَّ الذكريات، حينما يحمل أمتعته أيام الامتحانات ليهبط بها، فتحررت أنامله لكتابة جميل تلك الأيام.

وغل إلى الغرفة التي تبدو جميلة وحزينة في نفس الوقت، وجد صديقه محمد عباس الذي يتميز بهدوء ووقار ودماثة خلق، مستلقيًا على فراشه في إحدى زوايا الغرفة، يعبث بأنامله على الهاتف وتتلاعب ابتسامة متعبة على شفتيه، يشعر بمس من النعاس يداعبه، غير آبه للامتحانات.

جوكس، كعادته متوجس من الامتحانات فيذهب الى الجامعة ولا يعود إلا ليلًا جثة هامدة يرتمي على فراشه ويذهب في نومٍ عميقٍ.

ومن ثم يأتي الزين الذي يتصاعد إحساسه بالوهنِ، تتوج الفرحة

بحضور ود الفاضل كآخر الآيبين إلى الغرفة.

ما أن تشرق شمس الصباح حتى يصيح محمد عباس بصوته المبحوح:

استيقظوا حتى نلحق (الفسيخ) لدى (عم بخيت) وفي كثير من الأحيان لا يجده فيحس وكأن قواه تخور.

فيحثوا خطواتهم صوب الخالة (توحة) ، بائعة القهوة ووالدتهم الأخرى لاحتساء القهوة التي لامثيل لها.

يلحق بهم سعود وادروب باسل ذو المعرفة الراسخة بتقاليد الشرق وأعرافه، لا شيء يعكر صفو تلك الجلسة إلا حضور كامل ولغطه المجوج حول كرة القدم، يس بكري يهز كتفيه وكأن الامر لا يعنيه .

ما إن ترسل الشمس آخر شعاع للقمر، وهي تنحدر للمغيب؛ حتى يحضر علي الذي يقطن في أرقى أحياء العاصمة الخرطوم وبحوزته باسطة، حتى صار عادةً، حينما يحضر علي يدرك الآخرون أنه جلب باسطة فيقتحموا غرفة أصدقاءه حتى يعثروا على نصيبهم، تتوهج وجوههم بفرح طاغ .

في أغلَب الأحيان الزين له نصيب الاسد منها، حتى يتذمر بكور كثيرًا في هرج وضجيج.

بحلول الدجنة يتسلل صديقهم أبو النيز خلسة الى الغرفة، ويعطر سماء الداخلية بصوته الشجي حيث تموت الحركة داخل الداخلية بحلول الليل إلا في غرفتهم فيستيقظ ضوء من نوع آخر، مستضئ بهالة الأصدقاء، وأمسياتهم التي ترشح بالهناء بالوميض الذي يزورهم في أخريات الليالي.

فالغرفة مكانٌ عامرٌ بالرواد والأُنس.

الغرفة حاضنة لمواهب عديدة متمثلة في أصدقاء ودالعمدة، فلنستهل بمحمد عباس، الشاعر الفذ الذي يشار إليه بالبنان ويطير صيته.

دائمًا يحرك وجدانهم بأشعاره ومفرداته التي تلامس قلوبهم، ربما اكتسبها من الأرض التي شهدت ميلاده فهي كفيلة بذلك حيث الخضرة والوجه الحسن .

يكني بالكابيتانو، لأنه قائد منتخب الكلية لكرة القدم، كان يمقت شغب الملاعب، وطبقت شهرته الآفاق، حينما كتب لجماهير الكلية مقالًا اهتزت له أركان الجامعة .....

طوال خمس سنوات عجاف، قضيتها متوغلًا في دهاليز كلية الهندسة، تعلمت منها الكثير والكثير، فقد ظلت رائدة لكافة الانشطة اللَّا صَفيَّة وعلى وجه التحديد فيما يختص بالجانب الرياضي.

حتى أصبح تشجيع هندسة نموذجًا راسخًا في أذهان عديدة كان لها شرف الانتماء لتلك المؤسسة، ولا زالت تنجب مواهب كانت بداياتها من هذه الكلية.

في الآونة الأخيرة ازدادت وتيرة الصراع حتى أضحى احتقانًا في نفوس البعض، وأصبحت فوضى عارمة تتخلل أعقاب المتسلسلات من المباريات المنصرمة، وبلا شك حينما يتكرر السلوك الفردي يصير ظاهرة، والظاهرة تحتاج إلى دراسةٍ مستفيضة.

ظلت على الدوام الأنشطة اللا صفية جامعة بين أطياف الجامعة

بمختلف مسمياتها، كما تنشأ الزهور المتعانقة في مغرس واحد، لكن يبدو أننا ألفنا الهوان حتى صار طبعًا واستساغ الفوضى نفر كثير منا ، لإشباع غريزة ما.

تلك الظاهرة تنمي آثار سالبة وتنتج عنها أزمات متشعبة فعلى سبيل المثال غياب المنبر السياسي، عدم الاكتراث للقضايا اليومية .... الخ .

آض تشجيع هندسة مبادرة جيدة الشكل فارغة المحتوى، وبالتأكيد هذا ذم بما يشبه المدح او مدح بما يشبه الذم .

في خاتمة المطاف وأنا على أعتاب التخرج أقول لأبناء هندسة وثمرتها القادمون، استبينوا النصح حتى لا يضحى الغد.

فنحن لا ندرس هندسه فقط، بل ندرس قيم وأخلاق أيضًا، وستظل هندسة العشق السرمدي رغم مكر الماكرين .

كان باستطاعة يافع مثله أن يمحو احتقانهم، ويجدون في كلماته تلك تعزية وسلوى، وهدأت الثورة التي كانت لاتزال تعتلج أضلاعهم.

ذات مرة قال له ودالعمدة ممازحًا:

-حتما يا صديقي مفرداتك سيخلدها التاريخ، لكن يا صديقي دعني أرى أشعارك بعين الناقد، وأطرح سؤالًا:

-لماذا كل أشعارك يعتريها الحزن والشجن ؟؟ ، كعاشق ولهان يعاني آلم الفراق أو كمن يحب من طرف واحد ؟؟

فضحك محمد عباس بحنكته وسخريته المعتادة وأردف:

-بالتأكيد هذه أسئلة ليست للإجابة!

وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تقطر انتصارًا وهو محدق بناظره نحو مروحة السقف التي تدور بإعياء.

أما كامل ذاك الفتى الشاحب، طويل القامة كان فنانًا ذائع الصيت صاحب حنجرة ذهبية تذوب الصخر، وأيضًا لاعب كرة قدم ممتاز إلى حد ما، يبدو أنه من القلة الذين جمعوا بين (الكفر والوتر) كما يقال.

يحكى والعهدة على الراوي، حينما زار كامل إحدى الكليات الخاصة لإحياء حفل تخريج فيها، إنه أزَّق مضاجع حسناوات تلك الكلية. وذهبن بخيالهن معه حيث شاء أن يذهب، حتى إنه أنسل من الكلية انسلالًا في هدوء اللصوص حتى لا يشعرن به.

تجول في الخاطر عند ذكر موهبة كامل رائعة مصطفى سيد أحمد غدار دموعك حينما تغنى بها كامل على طريقته، وصوته يتموج ملتاعًا في جوف الليل إلى عنان السماء، فأجهش الحضور بالبكاء .

السطور القادمة هي لوصف موهبة عبدالله الزين قصير القامة، وهو يمشي مشية الذاهل الحائر ويحوم برأسه فوق رؤوس الجميع بعينين جاحظتين بالشر والوعيد.

موهبته غريبة بعض الشيء إلا وهي تعلم فنون القتال، التي ظل يداوم عليها منذ الصغر وتستهويه، حتى بلغ فيها الأطوار النهائية وحاز على الحزام الأسود.

حاجه (توحة) بائعة القهوة مثلت ملاذهم الآمن، الذي يحصلون فيه على ضحكات صافية، وتزجية للوقت في أون انتظار محاضراتهم.

حاجه توحة هي الأخرى تستيقظ مع خطوط الفجر الأولى، كل خطوط الفجر لم تستطع أن تبدد من حولها سواد الليل، تستيقظ هي والمدينة لاتزال نائمة، تشق طريقها السحيق نحو مكان عملها المعلوم الإحداثيات تحت شجرة النيم المجتث الفروع، أفنت عقد ونيف من الزمان، وهي تزاول هذه المهنة ، لتسد رمق أبنائها.

حتى كتفيها النحيلتين ارتسمت عظامها تحت ملابسها الرثة، وشعرها هو الآخر امتد الشيب ليغطيه، فقد مرت السنوات عليها تارة عجاف، وأخرى مشرقة، وقهوتها طيبة المذاق استساغها نفر كثير من الزبائن، وحينما تقلب حبات البن على نار الموقد، تفوح رائحة طيبة تعطر المكان، الذي يعج بشتى أصناف الناس .

في إحدى الأيام أتت حاجة (توحة) إلى مكان عملها الذي كان مكتظًا بالزبائن، حتى لا تجد الوقت لتحك رأسها، فقد بات الآن فارغا ، وخف وقع الأقدام عليه.

دهشت قليلًا في أول الأمر وارتبكت، أظلم الفضاء في عينيها، لم تستطع كتم تساؤلاتها، حينما أدارت رأسها تجاه وجود الزبائن، نحو الطرف الآخر من الطريق، فإذا بها ترمق فتاة في ريعان شبابها جميلة الى حد ما، شعرها الثائر يتطاير كالوهج حول وجهها رقيق الملامح، كانت أينما سارت ككرة المغناطيس تجذب نحوها الرؤوس في اتجاه واحد تمتهن نفس مهنتها.

كانت نحيفة تجلس على مقعدها الجديد، وهي تسرو ثيابها عن جسمها

و تمد ساقيها اللتان كانتا في غاية النظافة، تملأ المكان بعبيرها وتترك الزبائن ليرقصوا على وقع قدميها، جموع غفيرة ترتمي في أحضانها من الزبائن الذين كانوا فرائس سهلة الاقتناص.

كانت ذات أصول حبشية، تثرثر مع الزبائن بكلمات تسمم الآذان، يتأفف قلم ودالعمدة على كتابتها، وتعاملهم بدلال فائق غير مسبوق، ونثرت العطر بسخاء حول جسدها.

يحاول أحدهم من وراء منظاره السميك أن يلتقط لها خلسة ويرمقها بإعجاب على مقعده الجديد، وبين أعطافه مخائيل النعيمة.

والآخر يتوه قليلًا في هذيان الحلم وحركة حاجبها الطفيفة وابتسامتها الآسرة على شفتيها المكتنزتين، حينما اقتربت منه حتى كادت أن تلتصق به دون أن ينبس ببنت شفة، وكهول دارت الأيام عليهم دورتها يحاولوا أن يستعيدوا ألقى الضحكات القديمة رأت كل شيء، وكان من بين ما رأت ذلك البريق الذي توهج فجاء في عيون الناس أجمعين.

لم تستفق حاجة توحة إلا بعد حين، ورأت في ظلمة ذلك اليوم هذه الفتاة البائسة، حينما نال منها الجسد سقطت على كرسيها حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء.

فهمت حاجة توحة ما كانت تصبو له فتنهدت طويلًا، وزفرت في غمرة سهوها، وهي تئن أنين الوالهة الثكلى، وتتحدث كالرجل الغيور الضنين بعرضه:

-حقًا إن أجمل الفتيات يجلبن أسوأ الرجال حتى ولو كان على ماثلة

زبائن !!! . كما تنشأ الزهور المتعانقة في مغرس واحد.

هكذا مرت شهور أخرى عجاف على ودالعمدة وهو في الداخلية، وبدأ عليه التهيب من الامتحانات وهو يقضي ساعات ما بعد الغسق عاكفًا على أوراقه، يلتهم أوراقه حتى الهزيع الأخير من الليل، إلى أن تبين الشمس وبعدها يسترقوا غفوة لعلها تعينهم على الصمود.

في كثير من الأحيان تنتابهم كوابيس مفزعة ترتعد لها فرائصهم، ليكروا عائدين إلى صفحات الكتب، ويفضوا الغبار من على متنها.

يخيل أحيانًا لود العمدة بأن طريق الدراسة سحيقًا مغرقًا في البعد وهو يظل تائها في ليلها من غير قمر، يتمنى بوجل القفز من الأيام، وأن تلفظه ثمالة آخر امتحان إلى جب الهاوية تلافيًا للقاء مجددًا حتى ينام قرير العين .

تارة يعودون أدراجهم من الامتحان وملامحهم تعلوها آيات الانباس والتكدر، وحينما تسأل أحدهم عن الامتحان، يزوي حاجبه كمحقق يحاول فك طلاسم قضية شائكة، وهو يزفر بصوت حشرجة برد مبهم .

وآخر يقطب جبينه وهو يحك جبهته التي غداها مقدمات الصلع بسبابته قبل الشروع في الرد وهو مهيض الجناح، ومصاب بالإعياء، بينما ودالعمدة يتلكأ قبل التهامه الطعام الصلف، ريثما يهدأ غليان المشاعر.

بحلول الليل يرتعون في الداخل، سامروا فيجلسوا في عدة مجموعات متناثرة تحت ضوء القمر، كان البرد يشتد ونواح الريح يتزايد، لكن حرارة الحديث كانت تدفئه.

ذات مساء تثائب القمر وهو يقبل الشمس لتأذن له بالرحيل، وحينما

يلوح القمر للشمس المتحفزة للمجيء، وتصطف النجوم تحييها تحية إجلال وترافقها الى عتبة الأفق تخطت الساعة الرابعة بدقائق، وآخرون يغطون في نوم عميق.

وفي مكان آخر عشاق يتبادلون الحديث بإسهاب بكلمات عشق حفظوها عن ظهر قلب وعواء، كلاب عقور على قارعة الطريق .

ودالعمدة قابعًا مكانه مدفونًا بين صفحات الكتب، محمر العينين، متورم الجفون، ما يجعله يتشبث بذلك إنه آخر امتحان له في هذا الفصل الدراسي، يحاول جاهدًا إماطة اللثام عن تلك المادة مكشرة الأنياب، فحدثوهم عنها وعن دكتورها صعب المراس، وكتب فيها ما كتب مالك في الخمر، يدوي بصرخات تتردد في الأعماق ويبث الصدى في شقوقه، ظلم الإنسان لنفسه دونما القراءة المبكرة، الغرفة في تلك اللحظات تبدو جميلة وحزينة في نفس الوقت.

ازدحمت الافكار في رأس ودالعمدة ولينزاح عن تلك الرتابة صوب بصره نحو صديقه ادروب مليح التقاطيع وهو يمطره بابتسامة غامضة فرفع بصره من جديد نحو جوكس متجهم الوجه، رأى ودالعمدة الذعر في عينيه يستنجد به ويثير زوبعة من التساؤلات يجهل إجاباتها ومحمد عباس يرفع يده وكأنه يود، يصفعه ويتردد منه احتجاج حبيس.

بينما الزين يظل عالقة في زحام الأسئلة يتشبث بها، يدخل عبد المحمود الغرفة في هدوء اللصوص يدور بصره فوق الوجوه كأنه يستغيث بواحد من الجالسين الذي قرأ شيئًا هنا أو شيئًا هناك، تتبدد قواه في ثوانٍ فيخلع

نظارته لتبين عيناه متورِّمتا الجفنين عندما يستعين بمحمد فضل الله الذي يهز كتفيه وكأن الامر لا يعنيه ، خطواته إلى مكان آخر يعض على شفته السفلى حتى يكاد يدميها.

محمد الفاضل يملأ قلبه بكل ألوان الفزع، عثمان بهلول يتحدث عن الأشياء التي تثير الغبطة، وغلالة مائعة تحجب ملامحه..

بعيدا يسير بكور بأطراف أنامله كطفل مرعوب، ووجهه صفحة خالية من التعابير ،راغبًا في إلقاء نفسه في أغوار تلك الغرفة وما وراءها من معلومات.

يطوف ودالعمدة مجددًا بعينيه المُتعبتين داخل الغرفة المهترئة ونسمات الهواء البارد تداعب الأوراق على الطاولة حتى تبعثرت في خاتمة المطاف يجد نفسه أمام واقع لا مفر منه، يستسلم للنوم ويلزم بصيص الأمل، بأن الحياة ستهديهم في آخر نفقها الأضواء .

في كثير من الأحيان يظل ودالعمدة مساهرًا عاكفًا على أوراقه إلى أن يصطبغ الأفق باللون الأصفر .

الطريف في الأمر، ذات مرة قرر الزين أن يبقى الصمود ملازمًا لود العمدة، بالرغم من تحذيره له بذلك لكونه الأكثر خبرة، وحينما اقترب موعد الامتحان صار الزين يشكو من أعراض السهر كما يُشاع عنها، بعد مُضي وقت ليس بالطويل، اتجهوا نحو قاعة الامتحان وعبدالله الزين أحس إنه يكابد مصابًا بأعراض مشابهة لأعراض ما بعد الثمالة، من دوران رأسه وعدم التركيز حتى فاقت قدرته على الاحتمال، كانت له ليلة ليلاء .

في نهاية المطاف استيقنوا بأن هنالك ثمة ملاحق لبعض الامتحانات تلوح في الأفق بالنسبة للزين، على الرغم من تكبده عناء المشقة، هو وصديقهم الآخر صالح الذي لا يمكث معهم، بل يرتمي في أحضان الغرفة في الطابق الأرضي مرافقًا لسعود ومصعب هبوباي وباسل الذي يمتاز بأدبه الجم، ويتكهنون له بشأن عظيم في المستقبل.

المسافة بين الغرفتين بعيدة جدًا، لكن الترابط الوجداني بينهم جعلها أكثر قربًا.

في مساء اليوم الموالي بعد هدأة من الليل كان ودالعمدة بمعية ثلة نيرة من أصدقاءه وهم يجوبون شارع النيل طولًا وعرضًا، احتفالًا بانتهاء الامتحانات وفيروسها المشاغب الذي لازمهم وكان يقيم الصداع في رؤوسهم، فقد وجدوا شارع النيل كثقب ينفسوا من خلاله نيران الامتحانات التي تكوي جوانحهم ، تعزية وسلوى.

أثناء تجولهم في شارع النيل وعلى وجه التحديد بالقرب من بتروناس التقوا بأشخاص تربطهم علاقة بأحدهم ، فجلسوا في دائرة واحدة تتوسطها منضدة على متنها بعض الأواني الزجاجية، وكوب ماء الذي ظل طيلة فترة مكوثهم يتصدر الحوار، لارتباط كوب الماء بشخصية يكني لها معظم السودانيين كره مقيت، وعلى وجه الخصوص النخبة المثقفة (الكوز)، فكانت عبارات السخرية والتهكم حاضرة في كوب الماء والحالة السياسية، كانت مروعة آنذاك، في أوان اعتكار المناخ السياسي، تحدثوا عن الأشياء التي تثير الغبطة.

ومن ثم وبمحض الصدفة قال الصديق المشترك بين المجموعتين بأن صديقه فلان هذا (كوز) منشق .

في تلك الأثناء تغيرت ملامح وجوههم حتى بان الذعر في عينيه ووجهه أصبح كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة، وذهبت به الظنون كل مذهب، وتململ ودالعمدة في جلسته فانقلب شكل الحوار، وأخذ منحى الجد ثقل لسانه، ووهنت عزيمته وارتعدت مفاصله، لاذ الفتى بالصمت.

بدأ عليهم التهيب من قول كلمة حق في وجه عصبة جائرة إلا ودالعمدة استشاط غضبه، وحجبت غلالة مائعة ملامح الرجل الذي كان يرمقه باحتقار، وهو يزفر قائلًا كأن زلزالًا مزق الأرض تحت قدميه :

الضمير الآثم لا يحتاج إلى اصبع اتهام عواقب الصمت أحلك ظلمة من أسبابه وقالها في لهجة حاسمة.

اول تعقيب لي على ما تفوهت به أن تحليلاتي ذهبت إلى اتجاهين الأول إنك إنسان أرزاقي بحت وإن احتمالاته لم تذهب أبعد من تلك النقود التي باع بها ضميره الذي باعه بأبخس الأثمان، واعتذر له ودالعمدة على اللهجة الحادة ولديه تبريرات عديدة لذلك.

أما الاتجاه الثاني يحتمل وجهين:

إما إنه غاضب لإقصاء مارسوه عليه، والوجه الآخر إما انه انسان لديه قناعات بأفكارهم ومشاربهم الفكرية. وأضاف ودالعمدة وهو يعدل من جلسته:

-لكن هذا احتمال ضعيف الحجة لسبب بسيط، لو كنت من القابضين

على جمر القضية، لكان اختيار فراق عصبتهم لأنهم ضلوا طريقهم وسعوا في الأرض فسادا منذ أمد بعيد.

ساد صمت، أخذ مكانه وهو يجتاحه حزن عميق لعلمه بمدى فداحة خطأه التاريخي بانضمامه لتلك العصبة .

تشتد الظلمة كلما تناقص القمر في قبة السماء ، النجميات المتعكرة بنتف السحب الصغيرة البيضاء التي كانوا يسهرون عليها والبرد يشتد ونواح الريح يتزايد لكن حرارة الحديث كانت تدفئه.

ألقى ادروب بنظرة زائغة وهو يركز بصره طويلًا نحو شعر خالد الصادق المبعثر الذي يتشبع بالفكر الماركسي وهو يتكئ في إحدى الزوايا يحتسي القهوة المريرة مرتديًا ملابسه الرثة ، التي تفوح منها رائحة عرقه الخفيف .

بسخرية ادروب المعتادة أردف:

-أنتم الشيوعيون ملابسكم متسخة إضافة ال إلى إنها مهترئة إلى حد ما، على نقيضكم الكيزان فهم يطلون على الناس بأشيك الملابس، وأغلاها ثمنًا وبكامل هندامهم وأناقتهم، ويتعطرون بالعطور الباريسية ، فبالله عليك اليس هم أفضل حالًا منكم ؟؟؟.

تلت تلك اللحظات صمت رهيب ، ولم يستيقظوا من غفوتهم الطويلة هذه إلا حينما تراجع خالد الصادق الى الوراء قليلًا حتى لامس قفاه الكرسي، يطالع النجم في السماء وهو يواصل اندثارًا ، رد بعد أن احتضن سؤاله بعينيه الغائرتين قائلًا:

-نحن معشر الشيوعيين متسخين الملابس نظيفي القلوب، أما ما أشرت إليهم فهم متِّسخو القلوب نظيفو الملابس، فبالله عليك أليس نحن أفضل حالًا منهم .

فما الإنسان من غير قلب نظيف !!!؟؟

فضحك الجميع بإفراط من فطانة خالد الصادق ، لبرهة طويلة من الزمان.

ولم يفيقوا من غمرة انفعالهم إلا حينما عبرت حسناء الطريق وهي تترنح متثاقلة الخطى.

تتمايل كفرع مثمر تلاعبه الرياح بكامل أناقتها ترتدي تنورة قصيرة ومطلقة شعرها للريح تعبث به .

أثارت جلبة عارمة في الطريق الموازي ويقول أحدهم لآخر بصوت سكير:

(مزة مزة)

تنهد أحدهم تنهيدة خرجت من أخمص قدميه ويزفر قائلًا:

-هسي دي بتثير في الشباب بالطريقة دي وبعدين تجي تقول اغتصبوها !

نشب حوار طويل حول أن المجنى عليها دائما تثير المغتصب إلا ان صديقهم العوني كان له رأي مغاير، فزفر بدخان سيجارته حتى تلبد الجو بدخانها قائلًا:

انقضت أيام عديدة على اغتصاب عجوز ما، بمنزلها الكائن في مدينة

القيروان، الجدير بالذكر أن المعتدى عليها ذات ثمانين ربيعًا.

كان يبوح باعتياص شديد، وتوقف هنيهة ليتجرع الماء .

لماذا تبدوا كالمعتوهين الذين يتفوهون بكلمات تسمم الآذان وهم من أشد أهل الأرض مناصرة للمعتدي بزعم أن المجنى عليها دائمًا تثير المغتصب بملابسها وشعرها!!!

فماذا يثير في هذه العجوز الشمطاء ، الذي أكل عليها الدهر وشرب ؟؟؟

هل هو شعرها المجعد الذي امتد الشيب ليغطيه ؟؟!!

أم هو وجهها الشاحب الذي مارس عليه الزمن فعله وآض مليح التقاطيع ؟؟!!! ملابسها المهترئة ؟؟؟

أو هي خطواتها الوئيدة حينما يسمع صوت وقعها على الأرض وهي تعزف سيمفونية مع صوت العصى الذي تتوكأ عليه ؟؟؟!.

بعد نقاشات أخرى مستفيضة في تلك الظاهرة، قال لهم ودالعمدة :

بأن تلك الظاهرة لا يمكن اختزالها في جلسة يتيمة وبالتأكيد ستحتاج إلى جلسات عديدة أخرى، وما كانت هذه إلا خطوط عريضة دون التطرق في التفاصيل لكن محاولة إقناعهم كانت كالنطح في الصخر الأصم ، وأضاف:

- أنا شايف بعد كدا الوقت أتأخر فمفروض نتحرك.

تصافحت المجموعتين في ود عميق كالأصدقاء القدامى، وكأن الاتفاق على الالتقاء مجددًا حاضرًا .

تلك الليلة كانت شديدة البرودة، مع خطوط الفجر الأولى استيقظوا مفزوعين بصراخ محمد الطيب الهستيري .

في حين أنهم لمحوا أشخاص يهرولون خارج الغرفة ، لم ترَ وجوههم نتيجة للظلام الدامس ، ووجه محمد الطيب تم الرسم عليه بمعجون الاسنان لأنه كان فريسة سهلة الاقتناص بفعل نومه الثقيل ، أظلم الفضاء في عينيه، لا يدري هل كف بصره أم اشتدت الظلمة، ليجد نفسه أمام واقع لا مفر منه

سرعان ما تبادر إلى أذهانهم بأن هنالك ثمة تصرفات طفولية ستمارس مع نهاية الامتحانات، ومتسع لغايات جديدة .

صار ودالطيب يلعن حظة وهو صؤول في غمرة انفعاله لكون وجه ضحية تلك المؤامرة ويطلق عبارات الوعيد، ويحوم برأسه فوق رؤوس الجميع بعينين جاحظتين بالشر والوعيد، غير ان دخان سيجارته يحاصر وجهه الشاحب .

بحس محمد عباس الأمني كانت تشير أصابع الاتهام نحو أشخاص بعينهم، وبالفعل صدق حدس محمد عباس .

منذ تلك الليلة لم يرمق لهم جفن، والداخلية أشبه بمناطق الحرب، والويل لمن ينام والبقية مستيقظين، وتكررت الحادثة مرات عديدة للذين لم يستبينوا النصح حتى ضحى الغد.

اتسعت دائرة الاتهام وضمت أسماء شتى. وأفلت بكور بأعجوبة بعد مضي شطرًا من ليلة قرة من ليالي الخريف، فقد خدمه القدر برنين هاتفه

لحظة المحاولة الرسم على وجهه وهو منطوي على نفسه في فراشه ، حتى شعر أن قلبه قد فارق موضعه حيث لا يعلم له مكانًا.

هكذا عدت أيام مشرقة، يتخللها المرح، إلا أن شيئًا ما حدث لم يكن في الحسبان ، فقد كرَّ آيبًا أحد الأصدقاء من زيارة قصيرة لأسرته في قلب الجزيرة، لم ينطق مع أحد بكلمة واحدة .

أخذ مكانه في الغرفة وهو يجتاحه حزن عميق، ارتمى على فراشه وهو يغطي وجهه بالوسادة، رويدًا رويدًا بدأ يتناهى إلى مسامعهم صوت نحيبه الهامس ، سحابة حزن سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا حتى لبست وجهه، فسأله ودالعمدة في ذعر وهو يركز بصره طويلًا نحو حروق أصابعه والظنون تأخذه يمنى ويسرى، الذي وجد بعض الصعوبة في الخوض في غمار هذه المعركة أحس أنه يعاني يكابد، أحس أنه متعب مغلول.

ربت ودالعمدة على كتفه وعاد صوته يشجعه.

نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر لمغربها، جيش الليل يطارد فلول جيش النهار، وجاء صوته مضطربًا وأدبر يقول بإسهاب:

-بالأمس كنا نحتسي القهوة، في إحدى القهاوي المطلة على شارع مدني، المسمى مجازًا (شارع الموت) بمعية زمرة نيرة من شادخي قريتي في جو يسوده صخب الضحكات المتعالية بين الفينة والأخرى .

حيث تلك القهاوي مثلت ملاذنا الآمن الذي نستحوذ فيه علي ضحكات صافية في أواخر المسيات .

في آخر ذلك اليوم النضيد، والشمس تغيب ببطء خلف الأفق المتأهب لغزو الظلام كنا قد لمحنا شاحنة نقل وقود وهي تترنح على الطريق، كما لو أنها ثملة، تطابق حدسنا مع الذي حدث بالفعل، بأنها لا محالة ساقطة، لكثرة مثل هذه الحوادث التي فطنا لها لاحقًا بأنها مفتعلة، لسبب سأسرده في ذيل كلامي .

لحظات هي حتى خرج سائق الشاحنة وهو يفض الغبار من على متن سرواله بعد أن انتزع ما بداخله من نبضات رحمة وإنسانية، واتجه صوب قسم الشرطة ليدون بلاغ لتلك الحادثة .

في هذه الأثناء، بالرغم من التحذير شديد اللهجة من المستنيرين، اتجه بعض من سكان القرية لأخذ الوقود المنسكب على الأسفلت، وخاصة سائقي (الركشات) .

هنا كانت الكارثة، وكما يُقال معظم النار من مستصغر الشرر، اندلعت شرارة لم يعرف مصدرها، وفي لمح البصر كجريان الماء في جوف الظمآن تفحمت أجسادهم .

لا أبالغ والحف شاربي وأنا أجاهر بأن من هم على بعد خمسين مترًا تفحمت أجسادهم ، وتحولت سماء فداسي الصافية إلى سواد أعظم .

هنا سكت صديقهم، ولم يسمع له صوت باستثناء دموعه المنهمرة بلا استئذان وطبق فاهه

باعث انقلاب الشاحنة كما أسر لهم صديقهم :

بأن سائقي تلك الشاحنات، والذين هم في كثير من الأحيان من

جنسيات أجنبية ، يبيعون الوقود بلا أدنى رصيد من الأخلاق أو وازع ديني لبعض التجار الرعاع، ضعاف النفوس، ليقبضوا ثمن ضمائرهم التي باعوها بأبخس الأثمان.

من ثم يقومون بإسقاط الشاحنة عمدًا، حتى لا يكتشف أمرهم وذلك بفقدان جزء من الوقود ، والذي بدوره يعرضهم للمسائلة .

محصلة تلك الحوادث وفاة المئات من أناس قريتي بسبب الجشع الذي أصاب الناس بصورة مزعجة، دور جسده واستلقى على ظهره حاضنًا رأسه بكفيه.

استفاق ودالعمدة من غفوة طويلة، فاته أن يتنفس وهو يصغي للفاجعة التي حلت بعشيرة صديقه

فباغته الزين بسؤال خاطف كالبرق وهو قائلًا:

– طيب انت جيت لي شنو، ما قعدت مع أهلك عشان تواسيهم ؟؟

ركز محمد بصره طويلًا نحو الأرض، وأردف قائلًا وهو في أحلك لحظات ضعفه:

– عشان ناس بيتنا قرروا يرحلوا الخرطوم، وأنا جيت افتش ليهم بيت هنا، وأغلب ناس القرية حيرحلو !

صار ودالعمدة يغمغم في غمرة انفعاله قبل أن يطرح سؤاله:

–هل نحن نعيش أزمة أخلاق ؟؟ ام هذه أخلاق الأزمة التي نعيشها ؟؟!!. .

مضت به الأيام هادئة حانية رتيبة، انقطعت به السبل نحو مجثمه، فالماذونية تقع في فصل الخريف، بالرغم من وعورة الطريق ،تجتثه مياه السيل، تاركًا جرحًا غائرًا لدى ودالعمدة ، ونفر كثير من الواقعين في نفس مأزقه إلى حين اتلأب الطريق.

في أو حوالي الثالثة إلا ربعًا، كان الظلام مطبقًا، وهو مستيقظٌ هائمٌ، يحاول تجميع ذاته المبعثرة، داخل غرفته المهترئة، وسيئة التهوية.

لا يدري ما العبث الذي اعتراه ، حيث يغمره حزن عميق، بين جدران غرفته الصماء ، لابد إنه الحنين للدراسة ودهاليز الجامعة، في حين المأذونية، أو هي رائحة الأصدقاء عالقة في خياشيمه، حينما تنعشهم رائحة الأنسام وهي تلفح وجوههم في أواخر الأمسيات، وهم غارقون في وحل المسامرة تحت ضوء القمر، في أون آض يغفو الجمال في الداخلية مع إغفاءة الشمس، وتموت الحركة في الداخلية بحلول الليل.

أو على الأرجح هو حنين من نوع آخر، يحمل في طياته رائحة زمن مضى، حنين للوطن الذي ما عاد يمثل ملاذهم الآمن، حتى صار الفرد في مجثمه كاليتيم في مائدة اللئام، وهروب المرح من عيونهم

أحيانًا أخرى يخيل إليه أن الذريعة لأنه بات صفر اليدين واشتاقت انامله لمداعبة النقود، بعد أن تربت يداه، حيث توقف مؤخرًا المصنع الذي

يعتاش منه بفعل الجبايات التي أهلكت ثاقله.

بيد أن أنامل صديقه هي الأخرى أصبحت شاحبة، فيمسك بيها سجائره رخيصة الثمن ويسحب منها نفسًا عميقًا، وبعصبية مفرطة يزفر دخانها الذي يخرج في شكل حلقات متشابكة ،وودالعمدة يراقبها بحذر ويكاد يجزم بأنه يرى مستقبله في طيات ذلك الدخان ،يرسم له شقة جميلة تطل على النيل، تمكث بمعيته أمل، وسيارة لا يعرف نوعها ولكنها حديثة، وأيضًا أمل ترتمي في أحضان المقعد بمحاذاته.

لكن سرعان ما يصاب بالإحباط حينما يتلاشى الدخان .

طالت لحية ودالعمدة، وآضت ملامحه توحي بالاختبال، وهو يقضي نهارًا مضني ليجمع ثمن طعامه.

في إحدى المرات والشمس في رحلتها الى الوقوب وعلى مقربة من مقرن النيلين ساقته صدفة التلاقي بأستاذه في بائد العصر .

لبرهة طويلة من الزمان ركز بصره نحو أستاذه، وشكله يوحي بأنه بقايا تفاصيل إنسان من ماضي مندثر.

زيه المهترئ تلون برائحة الماضي السحيق الغور على النسيان ، عيناه خف فيهما النور وذبل .

شاب شعره، والذاكرة لم تشب على معرفة ودالعمدة، وكل شيبة على رأسه تحكي قصة كفاح .

عظامه هي الأخرى شاخت، وشقاءه يظهر في ملامح وجهه الشائخ، وأحزانه تقترب به الى حافة اللوثة، يحمل هموم المعدمين والمعذبين في

الأرض.

احس ودالعمدة بإحساس عميق لا يمكن وصفه، لا يدري أهو فؤاده يرقص فرحًا لرؤية معلمه، أم هو حزنه على حالة معلمه التي يرثى لها ويشيب من هولها الولدان، أم هو مزيج من الفرح والألم في أون واحد.

صافح ودالعمدة معلمه بأسى حتى كلت يداه، ولكن سرعان ما استعاد تبسمه المعتاد.

أستاذه كان مدرسًا لمادة التاريخ، لذا تتجسد لودالعمدة فيه رمزًا ويجد ضالته في الشخصيات التاريخية، ويحمل له التقدير الشديد بمكنونات قلبه.

فمنذ الصغر يستهوي ودالعمدة حب جارف لمادة التاريخ يخيل إليه إنها نافذة، يسافر بالزمان عبرها الى حقب زمنية سابقة ويلتقي بعظماء العصور.

على النقيض يكني كره مقيت لمادة الجغرافيا يظنها علم قبيح يقسم العالم إلى ألف لغة وألف عرق وألف دولة.

بادله استاذه التحيا بودٍّ مع أن كل شيء بداخله يرتجف، لزم مقعده بعد أن هذه الأعياء، وهما يراقبان المغيب كأنه شروق .

جثا كالزعبوب منهكًا واهنًا في العرق وبدأ يروي قصته بصوت مرتبك.

زهرة منزلي، ابني الأصغر خالد الذي أشد به أزري حتى يقيني غوائل الدهر ، قد آض يتجشم من ثقوب في القلب، فأنت أدرى بحال

مستشفيات سائر الولايات سيئة الذكر، في وقت أصبح فيه الطب مهنة لا مهنة له، فكم من سمج أخلاق تم القبض عليه، وهو يداوم على معالجة الناس ولا صلة له بالطب لا من قريب ولا بعيد.

اغرورقت عيناه الخضراوان ، محدقًا لطفل تقاطيعه مشابهة لابنه، اجذله مشاغبته الطفولية، وهو يزهو بمرح ويصفع والده على جمجمته الفارغة إلا من شعيرات متناثرة بصورة عشوائية.

بعد سنوات عجاف، حملت عصى ترحالي وهممت بامتطاء جواد الترحال نحو العاصمة الخرطوم متأبطًا خيباتي حتى نلت مبتغاي وما كنت أصبو له .

اخذت دقات قلب ودالعمدة تتسارع ولم يجد غضاضة وهو يزفر قائلًا:

- قالو الولاية اتطورت، وبنوا مستشفيات كثيرة ، واشتروا أجهزة حديثة.

ارتفع صوته كفحيح الأفعى يقذف السم نحو ودالعمدة:

-ما إن ولج الوالي الجديد ، يغالي في التباهي بتلك الأشياء، وتتعالى اصوات المكاء والتصدية من اجل موعد الانتخابات أضحى على الأبواب، سرعان ما تبادر للأذهان بأن هنالك ثمة مؤامرة تحاك في ليل من غير قمر ضد الولاية.

في حين أن الولاية والغة في الدماء وانسانها طحنه الغلاء، وبات في إملاق ماكثٍ في صومعة بفعل قراراته الرعناء، يصدرها الوالي من وراء

طاولته وهو منزو، حينما اخترق صداها نسائم الروح بدأ الهروب نحو العاصمة الخرطوم .

يا ابني السلطة لعنة مجسدة تستقطب الزلفى والضراعة، والمنتفعين الطافين على السطح كالجيف !!!!!

بدوري طرقت كل الأبواب الموصدة ، لكن في خاتمة المطاف، ليس بوسعي، أن أترك ابني غارقًا في وحل هذه الهرطقة السياسية.

فالرجل الوطني يفكر في الأجيال القادمة، وهؤلاء ليسوا بوطنيين، إنما سياسيين، والسياسي لا يفكر إلا في الانتخابات القادمة، في حين أن جل ما فعله الساسة، أن يصدروا ضجيجًا، ويتفوهون بكلمات تسمم الآذان وراء شاشة التلفاز، ومن وراء حجاب يقبضون ثمن ضمائرهم، ضمائرهم التي باعوها بأبخس الأثمان .

وهناك قوم آخر أصبح لا يرى لهم فعل إلا بالدعاء ، ونسوا أن عواقب الصمت أحلك ظلمة من أسبابه، وإن من بالغ في استسلامه ورضوخه ضاق فكره عن رؤية الحقيقة.

حتى الذين تعلمنا على أياديهم أن اعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، فقد بدأ عليهم التهيب من قول كلمة حق في وجه سلطان جائر .

يذرفون الدموع الزائفة كجريان الماء في جوف الظمآن منوهين الشعوب بالدعاء، لكن فاتهم أن الدموع لا تسترد الموتى ولا الأراضي الوالغة في الدماء .

جلف لسان ودالعمدة ، فأضحى يجرجر بصره نحو النيل فرنا بنظرة

زائغة صوب الضفة الأخرى حيث الحنين لرائحة زمن مضى .

شباب يرددون أغاني شعبية حفظوها عن ظهر قلب ورائحة الانسام تنعش أنوفهم، أحدهم يحمل آلة موسيقية يعزف الحانًا تعبث بالوجدان.

قابعًا بجوارهم عشاق بمحاذاة النيل، وانتل جنسيًا تحمل إضباراتها الغارقة في تفاصيل السياسة.

تشتد الظلمة كلما تناقص القمر في قبة السماء، ليستيقظ ضوء من نوع آخر مستضئ بهالة المرح في عيون الصغار.

تلت تلك اللحظات صمت عارم وودالعمدة آفاق بتثاقل وخمول يركز بصره نحو أستاذه ليستشف نواياه وهو يردف قائلًا:

-ماذا عن مهنتك ؟؟؟ هل تركت التدريس ؟؟؟

أستاذه اشعل سيجارة رخيصة الثمن بيده المرتعشة، يجذب أنفاسها بعصبية مفرطة وسحابة حزن تستقر على مآقيه في فضاء الخرطوم، وهو ينظر إلى سيجارته ترسم أشكالًا واهنة من الدخان في صمت طويل.

كيف لأعقاب سجائر أن تطفئ ما في أعماق جوفه، وترك ضميره ينطق، في حين ارتعش قلبه لذكرى رائحة زمن مضى، وأردف:

-بالطبع لم يساورني أدنى شك بتركها، ولا أرسخ غيرها. فقد أفنيت عقود ونيف وأنا أجوب صفحات الكتب والتهمها، حتى أصبحت في حسرة انعتاق ، وأنا أحذو حذو سائر أندادي، وقد فسدت بعض الأجزاء في جسدي ولم يعد بالوسع إصلاحها .

عقد ذراعيه خلف رأسه وأضاف:

-لم يتم نقلي، فأخذت إجازة بدون مرتب، أعمل بالمدارس الخاصة، التي تدر عليّ مبلغًا لا بأس به لمجابهة غوائل الدهر.

وفي كثير من الأحيان، أجوب الخرطوم طولًا وعرضًا طارقًا الأبواب وهجير الشمس الغاضبة تحدق فوقي طوال النهار، باحثًا عن الدروس الخصوصية، وأنا منساق لترك كل شيء خلفي. فاجد الأبواب الموصدة تفتح لي صدرها كما تفتح لأندادي.

انهمرت دمعة متمردة تداعب خد الأستاذ بلا استئذان وهو يضيف:

أصبت بخيبة الامل يا ودالعمدة والجمتني الدهشة إلى حال التعليم ومالاته التي تقشعر لها الأبدان.

فقد أصبح سلعة تجارية، والربح هو الأهم، ألم ترَ بأم عينيك أن المدارس الخاصة تفوق عددًا من نظيراتها الحكومية، ما عاد التعليم كسابق عهده، طحنته الأيام وهو يكافحها بصبر تحت وطأة تسليع التعليم، فسدت فيه أجزاء حتى صار من الصعوبة بمكان تداركها، المدارس هنا حانوت قاس لا يقدم العلم نسيئة.

ودالعمدة لم يكن يتحدث طويلًا، ولم يكن يصمت طويلًا ..

بدأ ليل الزمن ينشر غطاءه الكثيف، والأستاذ بدأ يغرق في همومه ، وهو ينظر إلى ودالعمدة بعد أن توقف قائلًا:

-حملت عصا ترحالي نحو العاصمة الخرطوم طورًا أخر، لعلاج ابني، وهي سانحة لأحظى بحياة كريمة، فقد ضاق فكرنا عن رؤية الحياة في الولايات، حتى صار الفرد منا لا يشعر بالحياة إلا حينما يفكر في الموت،

لكن لم تبلع احتمالاتي الغافلة ما آل إليّ، فأنا أقضي نهارًا مضنيًا، أجمع ثمن طعام أبناء ، حتى أبدأ رحلة أخرى في ساعات النهار الأخيرة مع الدروس الخصوصية فقد صرت اعتاش منها، وأسد بها رمق أطفالي .

كان صوت الأستاذ مخيفًا، يجوب بنظرات مرتجفة، لكن بين الفينة والأخرى كان يمنح ودالعمدة ابتسامة تؤكد له أنه بخير.

أصيب لسان ودالعمدة بالثقل وهو يقول:

-هل يزخر لك العائد المـادي العيشة الكريمة ؟؟ هل يكفي الاحتياجات الاساسية؟؟

حاول أن يبكي الأستاذ، خارت قواه عليها، وتحولت محاولته الى انفجار بالضحك وكبرت الابتسامة على شفتيه، ورد هو بعد أن احتضن سؤاله بعينيه الغائرتين:

-ثمة دراسة حديثة في الاقتصاد تدعى (الله كريم) مفادها :

إذا كان دخل الفرد في الشهر أربعة ألف جنيه، يأخذ صاحب المنزل اجرته منها ، ألفين جنيه ، وحينما تدفع (مصاريف الأولاد وحق الملاح) التي تكبح جوانحك كل يوم الى حين منتصف الشهر تكون صفر اليدين.

لكن سيمر على أية حال نصفه الأخير مرور الكرام كما مر النصف الأول .

وهذا ما يحدث معي ، فقد صرت مقتنعا بهذه النظرية ولا يراودني أدنى شك في صحتها ، على الرغم من التهكم بها والاستخفاف.

في وقت أصبح فيه الاقتصاد السوداني عقيم غير قادر على إنجاب

نظريات تلائم واقعة .

جلف لسان ودالعمدة ولا يعرف ما ينبغي قوله ، قبل قليل لم يكف عن طرح الاسئلة ويلح في السؤال ايما إلحاح ويثير زوبعة من التساؤلات، فراح يذم شفتيه وهو يذوب أسفًا، غمس يديه في الماء، ومسح وجهه المتورم، وعيناه شبه المغلقتين، خُيل إليه هكذا يمر الوقت على أستاذه ثمينًا، يحمل بين دقاته انفجارات موته البطيء، يتألم كثيرًا من هول المعاناة التي تسبق النهاية، يساوره حزن عميق على فراق مجثمه، والذكريات هي الأخرى عالقة في شمراخه، لم تنفك عقدة لسان ودالعمدة بعد لا يعرف ماذا يقول ليواسيه، إلى أون استأنف الأستاذ حديثه:

ذات مرة حدثت لي طرفة، عالقة في ذهني وكأن الأمر قد وقع البارحة ، بينما كنت أجوب الصف، وقتها كنت أصيخ إلى تسميع القصائد، فإذا بأحدهم سمج الأخلاق، لم يكن يتقن الحفظ ، فأمطرته بكرباجي الذي يرتجف له العدو.

اخذت تطوف سحابات الماضي على ودالعمدة ، يتحسس ظهره مازالت نتوءات الكرباج عليه ، ونتوءات أخرى بفعل (الصرفة)، لم تستطع السنين أن تمحو آثاره من على ظهر ودالعمدة، على الرغم من تقادم العهد، يطل عليه هذا المشهد كل يوم، حينما يستلقي على فراشه ، لا يحمل براثن الضغائن لأستاذه، لأنه يعلم تمام العلم ، أن الذريعة كانت استحثاثًا على الحفظ .

أفاق ودالعمدة من غفوته الطويلة بتثاقل، وأستاذه غارقٌ في غياهب

الطرفة.

استشاط غضب الطالب وأثار حنقه، ولم يجد غضاضة وهو يصوب بسبابته نحو وجهي الشائخ، ويتفوه بقبيح القول، يتأفف لساني عن ذكرها، فعاودت ضربه من جديد، حتى دفعني بقوة مفرطة، حيث فاتني أن اتكئ على الحائط ، فارتطمت بالأرض من هول تلك الدفعة ولاذ بالفرار والشرر يقدح من عينيه، لحظات هي حتى انتصبت، وأنا اتوكأ على الحائط، من الأرض الملطخة بدمائي .

كان النهار على وشك أن ينتهي، عاد الطالب، وهو يسير خلف والده مكدر المزاج، الذي يبدو عليه أنه من الرتوت.

نكص قلب مدير المدرسة بقوة، تملكه الهلع على مصيره، فاستدعاني إلى مكتبه، في حين أن الظنون كانت تأخذني يمنةً ويسرة .

زجرني المدير بعد أن أصغى إلى إفادة الطلاب، ووبخني أشد توبيخ، في أون حاول جاهدًا تطييب خاطر والد الطالب وتهدئة خواطره، وهو من وراء طاولته وهو يصدر لي الامر تلو الآخر، حتى بانت نواياه أن اعتذر لوالد الطالب، مع إن كل شيء بداخله كان يرتجف، فهو يعلم فداحة خطأه التاريخي .

حينما شرعت أنا في الحديث أوقفني المدير بخبط التربيزة بعصبية مفرطة من يده السمينة حتى تبعثرت الأوراق.

طأطأ ودالعمدة رأسه وهو يصفق بيده في غيظ ويهز كتفه، بينما استأنف الأستاذ حديثه:

أخذت الغيوم تتجمع بسرعة وكل شيء ينذر بهطول فاجعة والطقس مشحونٌ بالشكوك والترقب، رغم الإرهاق، والوهن، والدهشة ملازمة لي، إلا إني كنت هادئًا في تصرفاتي، وفي خاتمة المطاف أجبرت على الاعتذار على مضض والإهانة تجترح حلقي وقالها في لهجة حاسمة، ووالد الطالب قذفني بقشرة برتقالة، كان قد فرغ لتوه من التهامها، وكبرت ابتسامه على شفتي ابنه.

وقال في نبرة حادة مع أن شعور بالعجز كان يتنامى داخله وهو مزهو:

-أن دخلت ولدي المدرسة دي بقروشنا، ومرتبك دا بتاخدو من قروشنا ، ما جبتوا عشان يضرب، والمرة دي أنا فوتها بي مزاجي، ولا عذر لمن أنذر!

فأجهش الأستاذ بالبكاء وهو يقول:

-اعتذرت يا ود العمدة درءا لمفسدة فصلي من المدرسة التي تقيني غوائل الده، واعتاش من خيرها ، وقتذاك سقطت هيبة الأستاذ أمام الطالب بلا عودة .

في غابر الزمان، حينما كنت أجوب القرية، يوقف المراهقين لعب كرة القدم عند مروري بأحد الملاعب، ويلقي علي السابلة التحية مرارًا، والأطفال. يركضون كما يركض المرح من عيونهم حينما ألمحهم يلعبون أثناء الامتحانات خشية أن أضربهم أمام ذويهم .

كل هذا فقط لكوني أستاذًا ومربي للأجيال، حقًا يا ود العمدة، يرتعش قلبي لذكرى تلك الأيام الخوالي .

مع أن صوته خرج قاسيًا إلا أنه شعر بالحنين لتلك الأوقات، ورائحة الألم هي الأخرى منبعثة من دموعه الآخذة في النزف

بأصابع مبتسمة تحسس الأستاذ ساعته في الجيب الايمن وهو يردف قائلًا:

-يبدو أن الوقت سرقنا ياودالعمدة ، أصبح الوقت ما بعد منتصف الليل .

استعاد ودالعمدة تبسمه المعتاد وكبرت الابتسامة على شفتيه وعيناه فارغتان إلا من خوفه على الأستاذ قائلًا:

-في حضرة الرائعين يمر الوقت سريعًا أستاذي وأضاف:

أين تمكث في العاصمة الخرطوم ؟؟؟

تنهد الأستاذ وهو يقول بصوت حشرجة :

- امدرمان الجانب الأفقر من الخرطوم والأطيب .. مع أن كل الجانبين طيب وفقير! وبالتأكيد يا ابني لنا لقاءات أخرى، وهو يجوب بنظرات مرتجفة .

كان الليل أطبق على الكون بصمته، إنه الهزيع الأخير من الليل، تصافحا في ودٍ عميقٍ.

اتجه الأستاذ وهو يعطي الطريق نظرة فاحصة، كان حذاءه مهترئًا، وهو يرتجف حينما يمشي، وكل أطرافه تتبعثر، تقوس ظهره وما على الأرض أحدًا أذل منه وأشقى، وهو الذي يستحق أن تنحني له الجباه ، تغيب ببطء خلف الأفق المتأهب لغزو الظلام.

تثاءبت شمس القرية الغاربة وهي تقبل جبين القمر ليأذن لها بالرحيل. ليستيقظ ضوء من نوع آخر ينسج العمدة الخليفة من خيوطه حكاياته مع وقوب الشمس، حينما يمكث على كرسيه التليد في أقبية المنزل، حيث ثراء القرية الاستثنائي بطبيعتها الخلابة وهواءها المنعش، ورونق زروعها الخضراء الذي يسحر العيون.

والصمت يخيم على البيوت، يتخلله مواء القطط وعواء الكلاب الضواري، وطنين الحشرات التي كأنما الشمس قذفتهم بشعاعها، الذي ينازع ذبذبات الراديو ذو الموجة اليتيمة والعمدة الخليفة حينها يسترق السمع وهو متشبث بأصابعه العشرة على الراديو حيث المذياع سلواة، وفؤاده به يرقص طربًا، وثمة أشياء صغيرة تعض وتلسع .

يتكئ بمرفقه على حافة الكرسي وهو يصر على محادثة الناس، فاخذ مكان تمر به السابلة، ويلقي التحية مرارًا على كل من يفوته .

ينافح الإيلاء بعد أن التجعت في أحشائه نيران الأشواق لود العمدة، وطيفه بملامحه النضيرة دائمًا في خاطره، وصورته هي الأخرى في ذاكرته لا يعلوها غبار الزمن ولا صدأ الأيام .

رويدًا رويدًا يبدأ ليل الزمن بنشر غطاءه الكثيف، وتشتد ظلمة ليل القرية كلما تناقص القمر في قبة السماء، حينها يفيق العمدة الخليفة بخمول

وتثاقل من غمرة سهوة، فيجول العمدة الخليفة بنظرات مرتجفة واضعًا يده على جبينه، فيلمح بطرف عينه، وميض مصباح في ليل القرية الدامس يتجه نحوه، فإذا به حاج الصافي يحمل كرسيه على عاتقه وهو يتلكأ في الطريق بخطوات وئيدة، وهو متلهب الصدر ليلتقي بأمسية جميلة بصحبة العمدة ليخفف كربه، حتى يشمر ثيابه ويقبع بمحاذاة العمدة الخليفة على بعد عدة أمتار، بوجه خالي من التعابير يلقي التحية على العمدة الخليفة ، حتى يصاب بعدوى الاكتئاب منه .

في كثير من الأحيان ، تنشب مشاجرة بينهما لأتفه الأسباب ، فيزجره العمدة الخليفة وينعته بالمشاكس .

يتذمر حاج الصافي ويبدي استيائه وحنقه فيحمل كرسيه ويكر آيبًا وهو مهيض الجناح، يدبر إلى حال سبيله .

يقسم بكافة مقدساته، عازمًا العقد على عدم العودة مجددًا، ولكن بطبيعة الحال، يظل كلام الليل يمحوه النهار، ما أن تخوض الشمس غمار رحلتها الى الغروب في اليوم الموالي، حتى يحمل كرسيه متوهج شوقًا لمسامرة العمدة الخليفة ، فهو نديمه منذ نعومة أظافره، يتبادلان الأحاديث الماجنة .

يقطع حديثهم وقع أقدام الطيب الثقيلة، حاملًا الشاي ذو النكهة الخاصة من الطراز الفريد، فنساء تلك القرية بأصابع مبتسمة يضعن بعض البهارات المحلية على الشاي، حتى يضاهي شاي (خميرة النرجس)، وشاي (باندا دونغ) لولا التعتيم الإعلامي، الموجه، وهي الاخرى غارقة في وحل

النسيان ، لكانت القرية صاحبة اجمل شاي في العالم .

بعد مضي وقت ليس بالطويل ، يحضر الحاج أحمد أيقونة القرية، ذو المعرفة الراسخة عن تاريخ القرية وأندادها .

فقد كان اجتماعيًا متفردًا بتواضعه الخالي من شوائب التصنع بعد ان أناخ دوابه .

يضيف إلى تلك الأمسية بعدًا آخر من المسامرة ، بعيدة عن الاستغراق في التنافرات التقليدية المتوارثة بين الغريمين .

يلقي الحاج الصافي نكته ثقيلة النكهة ويعكر صفو بهاء الحوار في تلك الأمسيات .

في ذلك اليوم كان جبين الحاج أحمد يندي ، ويقطب حاجبه ، بعقله تنخر أحزان، تقترب به الى حافة الهاوية وتتبخر رويدًا رويدًا مع تنهيدات تخرج من أخمص قدميه.

ولكنها في خاتمة المطاف تكثفت مرة أخرى وطافات سحابات الحزن حولهم على أن هطل عليهم مطرًا مدرارًا وهو يحكي قصة اقتتال القبيلتين في القرى الموازية على امتداد الصحراء .

حملق الحاج الصافي وهو يرتشف الشاي وينظر إلى العمدة الخليفة بعد أن اشتم رائحة الدم توقف قائلًا:

- ياساتر ، ليه السبب شنو؟!

وكانت الظنون تأخذهم يمنة ويسرة

بدأ الحاج احمد يذم شفتيه ويذوب أسفًا ويصب جام غضبه على

التنافرات التقليدية المتوارثة، وصوته كان مخيفًا وهو يسرد تلك الحكاية :

على قارعة الطريق ، كان قطيع من نعاج إحدى القبائل سالكًا طريقه الفج، إلا أن إحداهن انزوت عن اخواتها لترتع في زروع القبيلة الأخرى لحظات هي حتى امطرها فتى سمج الاخلاق بوابل من الرصاص لترتطم على الأرض غارقة في دمائها .

بيد مرتعشة كان العمدة الخليفة يتجرع الشاي وفاته أن يتنفس وهو يصغي لحاج أحمد وأردف:

- آها والحصل شنو ؟

فقد افسد مزاجهم كما يفسد الخل العسل .

بدوره افاق حاج احمد من غفوة طويلة ويستأنف حديثه:

-تجمع رتوت القبيلة الضحية، واتفقوا على الثأر من القبيلة الآثمة، وبعد مضي وقت ليس بالقصير، امتطوا صهوة جوادهم ليغزو القبيلة الآثمة ، كما الفتوحات الإسلامية في سالف العصر، وحروب داحس والغبراء .

توقف الحاج أحمد لدقائق ارتشف من سلسبيلها السكينة والطمأنينة ومن ثم استأنف كلامه. بينما حاج الصافي لا يكف عن طرح الأسئلة .

ساعة من الزمان حتى كانت الأرض ولغة في الدماء ورياحها تحمل في طياتها رائحة الدم .

كان حاج أحمد رغم الإرهاق والوهن يتكلم بصوت هادئ وهو يضيف:

-الأغلبية الساحقة الذين راحوا ضحايا في تلك المجزرة، وحمامات

الدماء هم صبايا في مقتبل العمر وريعان شبابهم .

كثيرًا من الأسر ، لاذوا بالفرار نحو العاصمة الخرطوم وهم منساقين لترك كل شيء خلفهم.

الليل أطبق على القرية بصمته ، حاج الصافي لم يكف عن طرح الأسئلة ، وهو بطئ الفيء وبدوره أدرك حاج أحمد أنه مطالب بالإجابة عن جملة من زوبعة الاسئلة ، بينما العمدة الخليفة لم يكن يصمت طويلا ، ولا يتحدث طويلًا ، وألقى بنظرة ذائعة تتفحص ارتال النفايات ، قائلًا في قرارة نفسه :

يا لهذه الساعات الحالكة التي اخترقت أذهاننا وسممت الجو ويتحلى بميكانيزمات الضبط الاجتماعي ، ويسرف فكره في الذكريات الأولى بعينين ناعستين، حينما يجلس حاج الصافي على بعد أمتار عديدة ، مع أحفاده وهو يجدله مشاغبتهم الطفولية ، وفظاظتهم التي يتمادوا في فعلها ، بالرغم من إدراكهم بأنه ولى عليه الدهر، وصار كالمعتوه وهو يلحف شاربه بأشياء من زمان غابر .

فهو يعد من المعمرين على الأرض عن عمر يناهز الثمانين عامًا لكن لم يبح بعمره يومًا ، ويلائمه قول الشاعر:

إن الثمانين وبلغتها ..... وقد أحوجت سمعي إلى ترجمان .

لا يدري أحد عمره الحقيقي ، غلا ذات مرة بمحض الصدفة ورط نفسه في زلة لسان .

كانوا يجلسون في شبه دائرة ، وهو غارق في بطولات الماضي ، ويلحف شاربه فيها، ويحكي بطولاته التي لا تلامس الواقع ، وكان البطل بعيون

الأطفال ولكن: بطل من ورق ، وما يتشبث إلا بالهواء

في كثير من الأحيان كان يستغل الصغار ويتلذذ بوضعهم في العمل الشاق وإزالة الأعشاب الضارة وحصد الثمار، في حين انه كان يبني لهم عشة صغيرة لا تقيهم من برد واكتنفاها لإخافة الطيور المتربصة للقمح بين الفينة والأخرى ، وهو صؤولا في التعامل معهم ، ويغالي في التباهي بالتنكيل بهم ، حتى يشتد أزرهم .

تارة أخرى يمجد لهم دور أجداده المحاربين القدامى مع الدولة المهدية ، ودورهم في دفع عجلة التقدم للبلاد ، وهو يسرد مساهمة قريتهم المنتجة داخل أفق مغيب اجتماعيًا ومهمش اقتصاديًا من قبل مركز سلطوي محكوم عليها بالقمع والاستلاب .

ومن رحمها انجبت نساء ورجال من الأفذاذ الذين جابهوا الحكم التركي والانجليزي ، وتقدموا الصفوف مع آخرين لنيل الحرية ومقاومة طواغيت الديكتاتورية .

وجاهدوا في سبيل الله مع المهدي ودخلوا مع غيرهم الخرطوم وقتلوا غردون باشا.

وبعد تلك الهجرات التي كانت بداية مجاعة سنة ستة يخيل إلى البعض إنها في العام الف وتسعمائة وستة .

بسبب فعل تلك الهجرات في أوان القهر السياسي والضرائب الباهظة اهمال الزراعة والهجرة الى الخرطوم وحروب المهدية ونهب الفائض من المال ، فكان هذا باعث مجاعة سنة ستة.

بانت شمس العاصمة الخرطوم، وقبلها اصطبغ الأفق باللون الاحمر ، ود العمدة أيقظه ضوء الصباح الذي تسلل خلسة ، فقد بدد مساءه في محادثة أمل .

انه أدمن رسائلها التي تسقيه خجلًا حتى الهزيع الأخير من الليل، ونام قرير العين على صوتها الهامس وهي تتمنى له أحلام سعيدة وتأخذ معها كاهل احزانه ومتاعبه، يكاد يكون مستيقظًا الليل بطوله، فقد أضاعت التكنولوجيا نصف الحب .

استيقظ ودالعمدة واهنًا في الارهاق والعرق ينز من سائر بدنه ، كانت الغرفة ساخنة كموقد يشتعل بالجمر .

رويدًا رويدًا أفاق بخمول وتثاقل وبعينين ناعستين ينافح استرخاء الصباح ونوم ما بقي من ليلة البارحة ، وعيناه شبه مغلقتين .

يداهمه الإحساس بالوحدة من جديد ، بعد أن بات يتوهج من حر الشوق، يعاني من الإيلاء كعصفور بلا ريش، وهو في أحلك لحظات ضعفه.

كانت الشمس تغيب ببطء خلف الأفق المتأهب لغزو الظلام، بعد قضاء فترة وجه والنهار هباءً منثورًا ، دلف علي الذي يقطن في أرقى أحياء العاصمة الخرطوم بشعره المبعثر ، الذي يداعبه بأطراف بنانه بين الفينة

والأخرى، وبخطوات هادئة تقدم نحو ودالعمدة ، ربت على كتفه وقدم إليه بعض الحلوى وبرتقالًا.

تبادلا النظر قليلًا بحبو، وهم يثرثرون في إحدى زوايا الغرفة ، طلب علي من ودالعمدة أن يقيم معه إلى حين انتهاء فترة الإجازة أو هدوء السيل . وظل علي يلح في ذلك أيَّما إلحاح .

احتضن ودالعمدة طلب صديقه بعينيه الغائرتين، ولم يمتلك الشجاعة الكافية للتلبية أو الشجب .

كان ودالعمدة رغم الإرهاق والوهن ، والدهشة ملازمة له إلا إنه هادئ في كلماته وهو يسرف فكره في اختلاق أي عذر.

تلكأ في الرد، وعلي بدوره لم ينتظر أثابته وفي خاتمة المطاف وافق ودالعمدة بطيب خاطر، فقال بصوته المدقع قبل أن يرحل بهدوء:

- حاغيب زي ساعتين وارجع ليك ، في الوقت دا تكون جهزت حاجاتك ، عندي مزة جديدة ماشي أقابلها.

قبل أن يوصد علي باب الغرفة ،قذفه ودالعمدة بقشرة برتقالة، كان قد فرغ لتوه من التهامها في أوان كبرت الابتسامة على شفتيه وهو يقول:

- الله يهديك.

كانت الشمس تغرق في طبقات السحاب ، وقتها حضر علي ليأخذ ودالعمدة الى المنزل ، بعدما دأب ودالعمدة على انتظاره.

كانت رحلة العودة إلى المنزل بالعربة تستغرق ساعتين ، يقضيها علي في معاكسة الفتيات على جنبات الطريق ، ودالعمدة كعادته يتكئ بمرفقه على

نافذة السيارة ، ويجول بنظراته على قارعة الطريق

في إحدى المرات ثمة حسناء تترنح أمامه في غمرة الاختناقات المرورية وتكدر مزاج السائقين ، فالسير البطيء في لهيب الخرطوم جهنم تمشي على إطارات .

فبثت الحسناء وشوشات الحبور على جنبات الطريق وحينما غازلها عليّ، ترسم ابتسامة متعبة على شفتيها .

تقدمت نحوه متثاقلة الخطى في حين تعبث بأناملها على أهداب الفستان، جاءته صفعة قوية، لم يرَ بعدها إلا ظلامًا، حتى حاصره الصداع من الجهات الأربع وأقام حفل في سنامه وامتقع لونه.

في أوان ارتفع صوتها بانديا كفحيح الأفعى يقذف السم ، فهي حية شوهاء ولبرهة طويلة لم تتوقف إلا حينما تجمع شعث الأشاوس وأصلحوا ذات بينهم .

صديق ودالعمدة الصهباء كر ايب متورم الجفون ، معصوب الرأس ، يغمغم بما يشبه الجنون ، فلم تبلغ احتمالاته الغافلة ابعد من ان تصافحه في هدوء ، ولم تكن تساوره الشكوك .

اعتلى سيارته وهو متأبطا خيباته وانطلق بالسيارة كاظما غيظه في حسرة انعتاق.

بعد مضي وقت ليس بالقصير، كانت السيارة تقف أمام منزل علي ذو الجدران ناصعة البياض، ومظاهر الثراء بادية جدًا على المنزل وأهله .

وجد ودالعمدة حفاوة الاستقبال، قابله والد صديقه الذي كان يقف

على أعتاب العقد الخامس من عمره وهو متلهب الصدر.

بدأ له حينما عرفه ومن الوهلة الاولى دافئا وحفيا بمن يلتقيه ، يتحدث وابتسامة واسعة تضئ وجهه .

في أول الأمر كان ودالعمدة من اشد أهل الأرض مناهضة لمقولة (رد الجميل صعب) لكن بعد أن طاب له المقام في منزل صديقه سرعان ما تأسن فكره .

في المساء حينما بدأ ليل الزمن نشر غطاءه الكثيف والظلمة تشتد كلما تناقص القمر في قبة السماء ، راح ودالعمدة يتجاذب أطراف الحديث مع والد صديقه حيث قال :

-انت من وين ياودالعمدة ؟؟ .

ركز ودالعمدة بصره طويلًا نحو والد صديقه يتفرس في وجهه لعله يقرأ طلعاته، وشيئًا ما نما بداخله بعقد مقارنة بينه وبين الحاج احمد، ربما بفعل اضباراته التي يطالعها .

عدل ودالعمدة من جلسته واردف قائلًا:

-شوف ياعم صالح ، انت من وين دي وقعتني في إحراج كتير مع الناس، أي زول بفهمها حسب ثقافته، يعني مثلًا عندنا في القرية لما تقول انت من وين معناها ساكن وين ، وأنا لقيت بعض الناس قاصدين بيها اصلك وفصلك وجنسك.

قاطعه حاج صالح والابتسامة تكبر على شفتيه وهو ينطوي أمرًا وقالها في لهجة حاسمة :

- لالا يا ودالعمدة ، انا قاصد قريتك بتقع وين ؟؟

استجمع ودالعمدة حباله الصوتية ، ورسم على محياه بسمة خبيثة قائلًا:

- انا ياعم صالح قريتي بتقع في مكان ما حتلاقيها في خريطة السودان ، ما في زول جايب ليها خبر، احتمال عشان عاداتها مختلفة ، واحتمال عشان بعيدة وانسانها ما مهم.

بدأ ودالعمدة يغرق في همومه، وعيناه شبه المغلقتين يطوف بهما في الصالون وزفر قائلًا :

- وأنت من وين يا عم صالح ؟؟؟) .

عاد الحاج صالح إلى ذكرياته الأولى التي اخترقت ذهنه وسممت الجو وأردف:

- دي قصة طويلة يا ودالعمدة أنا من قرية في الحدود مع إحدى دول الجوار انسانها البسيط بتعمد كليًا على الزراعة كمصدر الدخل الوحيد .

عقد حاج صالح ذراعيه خلف رأسه واستأنف حديثه:

-قريتي وأخريات يقبعن معها بمحاذاة الشريط النيلي جعلها تبدو كألارخبيل متقاربة من بعضهن البعض ، والترابط الوجداني بينهم جعلها أكثر قربًا ، كانت ستصبح مزار أثري ومنطقة سياحية تدر على خزينة الدولة أموالًا طائلة .

لم تنفك عقدة لسان ودالعمدة بعد ، وهو يصغي بينما واصل حاج صالح كلامه :

- أنا خليت القرية لي أكتر من أربعين سنة، في البداية كنت بسافر كل ما

ألقي طريقة، وقلت زياراتي شوية شوية لقايت ما انتهت .

قال ودالعمدة باندهاش مريع:

- وأهلك وأمك وأبوك مابتشوفهم ؟؟ حسب علمي من علي انه على قيد الحياة.

بات ودالعمدة يتفرس الى وجهه لعله يقرأ تطلعاته وآماله ولكن وجد وجهه العبوس صفحة خالية من التعابير وهو يقول:

- أنا زمان كنت زيك كدا جيت للجامعة وقريت هندسة اتصالات وبعد التخرج طبعا ما رجعت البلد لأنه ما عندي شغل هناك وكل المتعلمين من القرية ما في زول رجع لأنه طبيعة البلد طاردة وما في دخل يومي والناس بتعمد بس علي الزراعة، وبعدها إخواني أغلبهم رحلوا هنا، وأمي وأبوي في البداية كانوا يزورني كل شهر تقريبًا عشان مقابلة الدكاترة لأنهم الاثنين عيانيين، بس لقوا الجية كل شهر متعبة ليهم وفي نهاية الامر اضطروا مذعنين إنهم يرحلوا الخرطوم .

ودالعمدة نسي أن يتنفس وهو يصغي إلى كلام عم صالح ، الذي بدوره أدرك ما يجول في رأس ودالعمدة فقال كاسرًا جدار الصمت الذي اعترى المكان:

-طبعا ما سكنوا معاي هنا في بيت واحد، لأنه في عاداتهم وتقاليدهم عيب إنه يسكنوا في بيت الولد، وقدر ما حاولت اقنعهم رفضوا، وفي النهاية أجروا بيت في منطقة واحدة مع اغلب سكان القرية انزحوا هنا ، قالو ما عايزين يختلطوا مع ناس الخرطوم المفلهمين !

فقاطعه ودالعمدة كسرعة البرق وهو يردف قائلًا :

– والقرية الساكن فيها منو ؟؟؟

تراجع حاج صالح الى الوراء قليلا حتى لامس قفاه الكرسي واردف:

– بقت ما في قرية ، يعني ممكن تقول هنا كانت قريتي ، آخر مرة سمعت إنه احتلوها متمردين من الدولة المجاورة ، في البداية كانوا بسرقوا المحصول ، ولما ما لقوا زول بسألهم احتلوها عديل ولا حياة لمن تنادي ، وكمان قالوا هسي عايزين يتبعوها لي دولتهم !!!! وبرضو لا حياة لمن تنادي !!

ودالعمدة:

– زمان كان الناس بسافروا للبلد كل شهر تقريبا لأداء واجب العزاء أو في الاعياد، بس هسي اتقلبت الآية رأسًا على عقب، وبقوا ناس البلد بجوا الخرطوم كل شهر لواجب العزاء أو غيره!

قطع الحوار بينهما وقع اقدام علي الثقيلة وهو يصيح قائلًا:

– يلا الاكل جاهز .

أفاق حاج صالح بخمول وتثاقل بفعل كلمات ودالعمدة التي اخترقت نسائم الروح ، دعاه بالجلوس حتى يخفف كربه، بدوره نهض ودالعمدة متثاقل الخطى واتجه صوب المائدة ، حيث كانت تفوح في المكان روائح طيبة ما تشتهي الانفس، جلسوا في شبه دائرة وبين الفينة والاخرى يقول حاج صالح قاصدًا إذابة جدار الصمت:

– اكلوا يا شباب (الصبي جراب عرد)!

ومازالت عبارات الترحيب تبرح شفتيه، ودالعمدة يبتسم من جديد

يستشعر دفء المكان وحميميته .

كانت عقارب الساعة في يد ودالعمدة تشير إلى إنها الواحدة ما بعد منتصف الليل، حينما أوى إلى فراشه البارد، يطالع القمر في السماء وهو يواصل اندثارًا يدندن بصوته الغليظ ، وغناءه يتموج ملتاعًا في جوف الليل إلى عنان السماء، بعدما فرغ من توضيب الملابس التي سيرتديها غدًا ، فهو على موعد مع نصفه الآخر.

يزداد خفقان قلبه كلما تناقص القمر في قبة السماء ، يتمنى من الساعات القفز، حتى تلفظه الى لقاء محبوبته، فقد بات الليل بطوله يلتعج من نار الشوق .

ها هو الصباح قد اتى، وودالعمدة ارتدى الشوق وضحكتها الندية تتأرجح في خياله بين الفينة بعد الفينة، وزاره طيفها بملامحها النضيرة ، كل ذلك مر بخياله لحظة استيقاظه.

في ساعات النهار الأخيرة من ذلك اليوم المشرق والشمس تتهادى للمغيب محمرة الوجنتين والسماء تمطر قيظًا وغبارًا ، دلف ودالعمدة إلى مطعم ما ، أربكه اسمه في أول الأمر.

فكانت امل قد اختارت مكانًا عامرًا بالرواد، على ضاحية شارع المطار ، المكتظ بتكدس السيارات والسابلة وشعث الاشاوس، وحينما يتذمر احدهم ، يتعالى ضجيج أبواق السيارات، وتتعالى الشهقات من السابلة .

بخطوات وئيدة ولج ودالعمدة الى المطعم مزهوا بطلته الجميلة، وبرح مكانه في أقبية باحته الأمامية وهو متلهب الصدر وشبك أصابعه العشرة مع

بعضها البعض ، في حين همد الضجيج قليلًا .

يتكهن قدوم أميرته من حين لأخر وهو يتكئ بمرفقه على التربيزة وثمة جلبة عارمة في الترابيز القابعة على مقربه منه ، وثمة عشاق يتبادلون الحديث والمطعم يتنفس كذبًا ونفاقًا، وودالعمدة يدور بصره فوف الوجوه، كأنه يستغيث بواحد من الجالسين، وهو كعصفور بلا ريش .

نظر من حوله وتفرس في الوجوه التي كانت بعضها حزينة، وبعضها الآخر ذات ملامح حيادية.

جرجر بصره نحو الجدران الصماء بعينيه الناعستين، فشهد فيها فنًا جميلًا راقيًا، آثار فيه الدهشة، وسجاجيد مزخرفة برموز مبهمة .

بعد مضي مدة ليست بالقصيرة ، لابد انها بلغت النصف ساعة من الزمان ، ها هي في خاتمة المطاف حضرت بخطواتها البطيئة وترسم على محياها الضحكة الرقيقة جاءت داخل ثوب أنيق بسيط وتحمل في يدها حقيبة بلون حذاءها، وامطرته بنظرة اثلجت صدره ، كبرت الابتسامة على شفتيه .

بعد هنيهة من الزمان افاق من غمرة سهوه واستجمع حباله الصوتية حينما بادلها التحية بحرارة .

وغلا الى جوف المطعم ، حيث الفوضى العارمة وثرثرة الآخرين ، فقد وجدوا ثقب بنفثوا من خلاله النيران التي تكوي جوانهم .

جلسا على مائدة مستديرة على نحو ، وهي قبالته كما الأنداد ، تواجهه بذلك الوجه الصارخ الجمال وتلكما العينين السحيقتين العمق .

ألقت حقيبتها الى جوارها والقت برأسها على مسند المقعد .

وودالعمدة هو الآخر أسَّر لها بولعه لها وشوقه ومعاناته من الايلاء حتى أنحله الشوق .

فتحتضن كلماته بعينيها الغائرتين ويرقص فؤادها طربًا حتى يمتقع لونها ، كيف لا وهو يظنها ملكة في زمن كثرت فيه الجاريات، وهي الأخرى تظنه فيلسوفًا لم يفارق مرحلة الطفولة بعد .

حسده الناس على تلك الحورية كان يحس بالسعادة وهو يرمق عيون الناس وقد امتلأت حسدا بها وغيظا منه .

كيف لا وهو الصاحب الحقيقي لأجمل وجه عرفته عاصمة الوجوه الجميلة .

لا شيء يعكر صفو تلك الأمسية الجميلة إلا حينما يتصل والدها بين الفينة والاخرى . فيزوي ودالعمدة حاجبه، يتفرس إلى وجهها لعله يستشفي ويقرأ تطلعات والدها في صفحات وجهها الخالي من التعابير .

طلبوا عصير طازج ، ووجبة من السمك الدسم ، فحضرت النادلة ، وتناولوا منها الطلبات بامتنان .

في خاتمة المطاف اضطر ودالعمدة ان يدفع تكلفة باهظة الثمن في سمكتين لم يبلغوا الحلم بعد .

تناقص القمر في قبة السماء ، وليل الزمن نشر غطاءه الكثيف ، مر الوقت سريعًا حينها ودع أمل على أمل الالتقاء مرة أخرى ، وسار بتشامخ كأنه أشهر من مشى على الأرض .

مساء يوم ماطر ، كانت شمس الخرطوم تتهادى للمغيب محمرة الوجنتين ، ونسمات الهواء الباردة تداعب الستائر الزرقاء المسدلة على النافذة .

نسبة لسعة الوقت وصفاء القلب ، كان ودالعمدة يسترق السمع إلى الأغاني الأجنبية وهو غارقٌ في غياهبها ،التي باتت تشكل جزءا من ثقافته بعد إلمامه باللغة الانجليزية .

هذا المساء يغبظه يقبع خلف غرفته ويجتاحه فرحٌ غامرٌ ، يزوغ بصره نحو السماء فيرنو إلى وميض النجوم المتحفزة للمجيء تلوح في الأفق .

كان في وجهه نبوءة بانهلال المطر وبالفعل صدق حدسه، فاعتبروه منجما ، ولا يدرون بأن تلك النظرات نحو السماء لتستشف لؤلؤ نواياه ، يدركها الصغار في القرى.

دلف علي إلى الغرفة ليخبر ودالعمدة بأن عليه أن يجهز حاله ليذهب معهم لحضور زفاف ابن عمه .

قطب ودالعمدة حاجبه وبدأ عليه التهيب ، ازدحمت الأفكار في رأسه حتى تكدر مزاجه ، وفكر في اختلاق أي عذر ، لكن إلحاح علي هذه المرة كان اقوى من اعتراضه ، والحاحه أشد من إصراره .

بخطى وئيدة نهض ودالعمدة واتجه ميمنة حقيبته يقلب فيها حتى

كلت يداه .

كان يدرك بأن تلك الاقمشة في جوف حقيبته (القوقو) ، المهترئة بفعل الغسيل ، لا تليق بحضور مناسبات العاصمة الخرطوم ، فالكل يلبس القشيب الأنيق من الملابس ، أغلاها ثمنًا ، ويتعطرون بالعطور الباريسية .

إبان تلك الهنية ولج علي إلى الغرفة مجددًا وهو يحمل في يده سروالًا أسود غربيبًا ، وقميصًا أبيض قصيرَ الأكمام ، وسأل ودالعمدة ان يرتديها وهو يلح في ذلك أيما إلحاح .

في أول الأمر ، امتنع ودالعمدة من ارتدائها ، وازدحمت الافكار في رأسه ، لا يعرف ما الباعث ، ربما لحضوره المناسبات بزيه التقليدي وبدوره يحمل في طياته ثقافات ممتدة لآلاف السنين ، من الصعب التخلي عنها في بضع سنوات عجاف .

في خاتمة المطاف أخنع إلى الامر الواقع ووعد صديقه بارتدائها حينما أحس بضجره جراء هذا التصرف .

لحظات هي حتى صار ودالعمدة منتصبًا أمام المرآة ، يطالع تقاطيعه المليحة ، فوجد ذقنه مكبرة في اون انها كثيفة كما أشجار الغابة، وبات أكثر وسامة ، وبرزت عضلاته ، وجسمه الرياضي الذي كان غائبًا وراء ملابسه التقليدية .

بات ودالعمدة يشعر بالفخر والإعجاب بهذا اللبس الأنيق ، في حين أنه لام نفسه، عن خلع ثيابه التقليدية التي مثلت ثقافته ، وأدرك أنه

مطالب بالإجابة عن زوبعة من التساؤلات في قرارة نفسه.

يعتمل في داخله صراع بين ثقافة قريته وثقافة العاصمة الخرطوم ، وفي المنعطف الأخير انتصرت ثقافة الخرطوم ، والأمور دائمًا تقاس بالخواتيم!!

دلف علي الى الغرفة ، وهو ينظر لودالعمدة بعد أن توقف قائلًا :

– دا اللبس البناسبك ، أوعى الناس تبارك ليك ، يفتكروك انت العريس .

رسم على محياه بسمة خبيثة وقد كان يرتدي بدلة هادئة اللون، لونها خاطف يتأرجح بين الرمادي والسمني واردف قائلًا:

– فعلا اتقي شر البدوي إذا تمدن !

تحركت السيارة وهي تئن بحملها سالكة طريقها الفجر في تمام الساعة التاسعة مساءً ، السيارة باتت عالقة في زحام المرور، فاليوم عطلة نهاية الاسبوع ، فالشوارع مكتظة بتكدس السيارات ، وبدوره علي يكافح الوقت بالأنس ، بينما كان ودالعمدة دقائق الانتظار يملأها بالاستغفار ، فالطريق الى الصالة سحيق مغرق في البعد.

بيد مرتعشة أشعل علي سيجارة ونظر الى حلقات دخانه وأردف قائلًا لودالعمدة:

–الفرق شنو ياودالعمدة بين قريتك والخرطوم ؟

بأصابع مبتسمة أغلق ودالعمدة مذياع السيارة قبل أن يشرع في الرد :

– الفروقات كثيرة شديدة ، يعني مثلًا من ناحية العادات والتقاليد، لو كنت في القرية ماحتقدر تشرب سجاير كده عادي في نص الشارع

وانت في سنك دي، لأنه كل القرية بتعرفك، وأقرب زول ممكن يضربك كف ، ويسوقك لي أبوك برضو يديك كف تاني ، لكن انت هنا ممكن تشرب سجاير عادي ، وبتكون ضامن ما بتلقي زول بتعرفه في كرش الفيل دي إلا ما ندر ، وما اظن يسألك ولو اضايقك منك اضعف الإيمان بس حيقول في نفسه ولد قليل الأدب وأهله ما عرفوا يربوه ، وبكون خاتي في باله لو انت سألته ابوك ممكن يقول ليه ، يازول أنت مالك وماله ، لأنه واقع الخرطوم هو البفرض عليك كدا !

قذف علي بالسجارة من نافذة السيارة واتكئ بمرفقه عليها ، بعد ان تضاعف حنقه وهو ينظر لودالعمدة قائلًا:

– اها السجارة ورميتها ، قول لي فرق تاني مثلاً من ناحية العلاقات الاجتماعية.

تراجع ودالعمدة إلى الوراء قليلًا حتى لامس قفاه المسند، وكبرت الابتسامة على شفتيه وهو يقول:

– اقرب مثال يا علي ، زي عرس ودعمك دا ، معقولة ماشين تحضروا الحفلة بس !! شفت العرس دا لو كان في القرية ، أول حاجة كانت البيوت كلها اتفتح لاستقبال أهل ناس العرس الجايين من قرى تانية ، وبقعدوا شهر قبل العرس وشهر بعد العرس ، لحدي ما البيت يتنظم من جوطة العرس حتى اي زول يمشي أهله، وما محتاجين لي صالة عندنا حيشان حدادي مدادي ، بتستقبل السودان كله . وبعدين من يوم انا جيت قعدت معاكم ، لاشفتكم بتدخلوا علي جار ، ولا جار بدخل عليكم ،

واخير انتو من ناس عمي ديلك افراد الأسرة ما كانوا بتلاقو إلا في أوقات الوجبات . حتى في رمضان ما بتطلعوا تفطروا في الضراء!

كانت السيارة تخترق شوارع الخرطوم الفرعية بصورة مذهلة امعانا منهم للحضور في الوقت الملائم والحظي ببعض الوقت .

بعد زهاء ساعتين من الزمان ، لحظات مرت على ودالعمدة واقفًا امام بوابة الصالة كالتائه في ليل لا قمر له ، في اون انتظار صديقه ، حتى دأب على انتظاره فالأخير ذهب باحثا عن مكانٍ يركن فيه السيارة ، نسبة لتكدس السيارات أمام الصالة ، غارقة في الوحل ، فقد كشف المطر عورة الخرطوم وأزال المساحيق عنها وجرفت مئات المنازل ، يا لتصاريف القدر ، الأمطار التي تروي الأرض في القرية، هي نفسها التي تدمر المنازل في العاصمة الخرطوم .

– معليش اتاخرت عليك ياودالعمدة.

هذا ما تفوه به علي وهو يخطو خطواته نحو باب الصالة ،شمر ثيابه ويعمل جاهدا على ازالة بقايا الطين من على بنطاله .

فقد تمرغت ساقاه في الوحل في وانامله تعبث بربطة عنقه التي افسدها تحريك رأسه طربا يمنةً ويسرة مع مذياعها .

خطوات ودالعمدة بحذائه الهراء ساقته الى جوف الصالة ، أصابته الدهشة ، وألجمته ملابس الحضور وأناقتهم ، والإنارة التي تتوهج ، ويندي لها الجبين ، أمسكا عن الحديث وهما يقتربان من صخبِ المهرجان وزفة العريس

أحس ودالعمدة بشعور الغربة الآسن وهو يعود إلى ذكرياته الأولى، إلى أن وصل يوم زفاف ابن عمه بعد أن باع نعاجه بربح كبير، وكان أيامها على أعتاب العشرين من عمره ، وقيل له :

- بتاكل في حلة!

لان يوم زفافه هبت رياح عاتية .

والأرض والغة في دماء النعاج التي ذبحث ، والعريس بيديه الداميتين لطخ الحائط درء لمفسدة الحسد .

العمدة الخليفة:

- يامحمد جيبوا الصواني دي عشان الناس تتعشى قبل الحفلة وكلم الطيب يجيب البندقية والسيف من الدولاب !

افرغ العمدة الخليفة وابلا من الرصاص في جوف الليل وتموج ملتاعا الى عنان السماء ، وتعالت (زعاريد) النسوة ، واصطفَّ الرجال في شكل حلقة عريضة .

خلع ودالعمدة جلبابه وتقدم بخطى ثابته نحو ابن عمه العريس الذي كان يحمل الكرباج الذي يرتجف له العدو واردف قائلًا:

- ابشر يا عريس .

نظر اليه ابن عمه بعد ان توقف قائلًا :

- اركز يا ودالعمدة) .

وانهالت الكرابيج على ظهره كالمطر ، والعمدة الخليفة يهز عصاه الغليظة ويرقص فؤاده طربا ، وثمة جلبة عارمة في صفوف الرجال ،

ويقول احدهم لودالعمدة :

– صبي والله!

اشتم ود العمدة رائحة الدم ، فسار بتشامخ وامتشق الحسام من الغمد ، ووضعه في فمه يتراقص به طربا يمنة ويسرة وهو يطوح بجسده المترنح.

بعد ان هده الاعياء لزم مقعده منزويا ، بعينين ناعستين يراقب مراسم الزواج ومصابا بأعراض مشابهة لأعراض ما بعد الثمالة .

تواتر الحفل حتى غارت النجوم ، وبدأت تظهر خطوط الفجر الاولى في سماء القرية.

بات ودالعمدة يشعر بنوع من الحنين لتلك الايام الخوالي ، مرت السنوات وطعم الفراق مازال مر .

لم يفق ودالعمدة من شروده هذا الا على صوت علي وهو يقول :

– سرحت وين ياودالعمدة .

كبرت الابتسامة على شفتي ودالعمدة وهو يردف قائلًا:

– وصلت القرية عديل ، واتذكرت زواج ولد عمي والطقوس الفيه ، وضرب السوط !

كف قلبه عن الخفقان ، وراحت فرائصه ترتعد ، حينما علم بأمر ثقافة الضرب في الأعراس وزفر قائلًا:

– مع احترامي ليك ياودالعمدة لكن دا تخلف ساي !

اشتاط غضب ودالعمدة وتصاعد حنقه وقال في لهجة حاسمة:

– يازول كيف يعني تخلف ساي ، دي تقاليد لها مئات السنين ، ممكن

عادي زول يقتلك في كلامك دا .

بنظرات مرتجفة نظر عليّ إلى ودالعمدة بعد ان توقف قائلًا:

– لالا انا ما قصدي تخلف بمعنى تخلف ، بس قصدي إنها حاجة ما حضارية .

تكدر مزاج ودالعمدة ، ولم يجد غضاضة وهو يزفر قائلًا:

– الزول لما يغلط بعتذر مابتفلسف ،وأضاف ودالعمدة:

– يلا قوم نمشي نبارك لي ولد عمك دا عشان الحفلة انتهت.

ابن عمه استقبل ودالعمدة بترحاب فاتر حتى سرت رعشة بأوصاله ، في أوان أنه كان على أعتاب العقد الرابع من عمره .

بدأ الليل ينشر غطاءه الكثيف ، وتشتد الظلمة كلما تناقص القمر في قبة السماء ، وعلي يذوب اسفا ويذم شفتيه على سرقة مرآة سيارته خلسة، فانطلقت السيارة تخترق شوارع الخرطوم ، إمعانا منهم في العودة الى البيت .

فقال علي لودالعمدة ليكافح الوقت بالأنس، واجدًا فيه ثقبًا ينفث من خلاله غيظه من سرقة مرآته، و تزجية للوقت بعد ان أراح ظهره على المقعد :

– والله المواصلات دي مشكلتها مشكلة ، وهسي لو نحن ما معانا العربية كان ، واطاتنا أصبحت ، شوف هسي الناس البتأشر لينا في الشارع قدر شنو ، لكن بقى ما في زول بضمن التاني عشان يركبه عربته ، في رايك ياودالعمدة مشكلة المواصلات دي حلها شنو ؟

تنهد ودالعمدة تنهيدة خرجت من اخمص قدميه وأردف:

– والله ياخ ماشايف ليها حل إلا أي زول يرجع بلدو ، والأجانب برضو يرجعو .

قاطعه علي يثني على كلامه قائلًا:

– والله ياخ كلامك صاح، علي الأقل الأزمة بتخف ، وكمان بتتحلا معاها مشاكل تانية زي مشكلة السكن والمناطق العشوائية تتخطط من جديد، ولا رايك شنو ؟؟

صمت ودالعمدة برهة طويلة من الزمان وهو يطالع القمر في السماء يواصل اندثارا

– والله في رايي مشكلة السكن دي والمناطق العشوائية دي ما بتتحلا ، إلا تقوم في البلد حرب زي سوريا وتدمر بالكامل ويتم بنائها من جديد !

ضحك علي بسخرية مفرطة وهو يطلق عبارات التهكم من بين أطراف شاربيه قائلًا:

– والله انت مجنون ياودالعمدة .

عقد ودالعمدة ذراعيه خلف رأسه وأردف بفطنة:

–خذوا الحكمة من أفواه المجانين .

دلف ودالعمدة الى غرفته حيث الجدران الصماء وفراشه البارد ، ممسكًا هاتفه دأب على انتظار محادثة أمل لينام على صوتها الهامس وهي تتمنى له احلام سعيدة ، فقد تأخر الوقت .

انه الهزيع الأخير من الليل، انجرف في وادي الشكوك وذهبت به

الظنون كل مذهب.

بدأ عليه التهيب من مجهول ما ، فقد شعر بوخز قديم كان مألوفا لديه.

وهو في غمرة شكوكه رن هاتفه ، وكان علي الطرف الآخر أمل ، وصوت نحيبها الهامس يسمم أذنيه، فتشبث بالهاتف بأصابعه العشرة حتى اخترق صوتها الجو ، بعد هنيهة من الزمان أسرت إليه بكلمات ألجمته وصوتها كان مخيفًا وهي تقول:

– محمد ، المهتدي اتقدم لي أبوي وأبوي موافق، زي ما انت عارف ابوي وابوه أصحاب من زمان !

طفرت الدموع على عينيها واندفعت خارجة.

المهتدي هذا ابن زواد ، والده برتبة لواء ، في غابر الزمان افرغ مشاعره بين يدي امل ، ولكن لم تعيره اهتمامًا، وقتها قال لهم ادروب مازحًا لود العمدة بلهجته الفريدة:

– يازول ما تخاف أمل دي بتاعتك أصلا البنات بحبو الولد الضكران.

أيامها تربص المهتدي وآخرون لود العمدة ، ونصبوا له كمينًا محكمًا ، واستمر بالسير خلفه يعقبه بالكلمات اللاذعة ، لم يستجب ودالعمدة الى استفزازه، حتى صفعه صفعة قوية لم يرَ ودالعمدة بعدها إلا ظلاما ، وأمطروه بلكمات كادت أن تودي بحياته .

شعر ودالعمدة بطعم الدم على فمه ، ووجهه المتورم ، والأرض ملطخة بدمائه وعيناه شبه مغلقتين ، حينها انشدت امل قول الشاعر :

قد يعشق المرء من لا مال له ..... ويكره القلب من في يده الذهب

ما قيمة المرء الا في مبادئه .....لا المال يبقى ولا الألقاب والرتب.

– الو محمد مشيت وين انت سامعني ؟

حك ودالعمدة رأسه بسبابته وأردف:

– امل امشي نومي هسي ، وانا بكرة حامشي اقابل ابوك واحكي ليه الحاصل كله .

بصوت متلعثم قاطعته امل وهي قائلة:

– محمد انا حكيت ليه البينا ، وقال انت ما الشخص المناسب وما حيتفهم علاقتنا ابوي وانا عارفاه !

فقال ودالعمدة بصرامة لا تخلو من ذوق وادب:

– امل قلت ليك امشي نومي ، وخلي الموضوع دا علي انا ، بعد كدا الكلام بقى كلام رجال ، انا بكرة من البياح بمشي لي ابوك .

اجابت امل بثقة مع ان كل شيء بداخلها يرتجف :

– طيب كويس ، وكلمني بكرة بالحيحصل.

ازدحمت الافكار في رأس ودالعمدة ، يضرب اخماسا في اسداد ، لا يعرف ماذا يفعل ، لم يطاوعه النوم ، وبقى مستيقظا الليل بطوله ، نام القمر وهو مازال مستيقظا .

ما ان بانت الشمس ، وقبلها اصطبغ الافق باللون الاحمر ، ارتدى ودالعمدة ، بدلة صديقه ذات اللون الهادئ ، الذي يتأرجح بين الرمادي والسمنى ، وأصلح ربطة عنقه في اون انه تعطر بالعطور الباريسية .

تحرك ذات فجر ملبد بغمام خريف واتجه ميمنة مكتب والد أمل .

ما إن كان يخطو خطواته الأولى نحو المكتب وهو مزهوًا بطلته، بعد ان تم تفتيشه قبل اقتياده إلى باحة المكتب .

كان والد أمل مليح التقاطيع ذا ابتسامة غامضة ، ووجهه شائخ حانقٌ، متبلد المشاعر، يزفر دخان سيجارته في المكتب.

دور بصره من وراء نظارتيه ، حدجه بنظرة صارمة وأشار بسبابته لود العمدة بحركة ذات مغزى مفادها أن يجلس، ويرسم على محياه ابتسامة خبيثة، وهو يرمق ودالعمدة بنظرات هازئة.

كان ودالعمدة تساوره الشكوك، وذهبت به الظنون كل مذهب.

يتململ في جلسته ، يجرجر بصره نحو والد أمل يتفرس وجهه لعله يقرأ تطلعاته وآماله ويحاول جاهدًا إماطة اللثام عن شخصية والدها، وكان أصيب بدهشة عميقة وهو يسترق السمع ونسي ان يتنفس وهو يصغي للمحادثة فوالد امل لم يكن يتحدث طويلاً، ولم يكن يصمت طويلًا .

آفاق ودالعمدة من شروده بخمول وتثاقل على صوت والد أمل وهو يقول :

- أهلا وسهلا يا ودالعمدة .

رد ودالعمدة التحية الفاترة بصوت رقيق لا يتناسب مع عاداته وتقاليده وهو امامه حاملا على كتفيه كل الذل وكل الرجاء.

اضاف والد امل بعد ان نظر اليه شذرًا وأدار وجهه باتجاه آخر:

- أنا ما فاضي ياودالعمدة وماعندي زمن ، عشان كدا بدون مقدمات

ادخل ليك في الموضوع طوال.

مرر كفه فوق ذقنه الخشنة ، ويداعب بأصابعه السمينة الساعة الذهبية التي تزين معصمه .

– أنت عارف امل بتي ميراثها ، كم ؟!! ، ميراثها يربو على المئة مليون جنيه ، يعني ممكن يشتري قريتكم بالناس الفيها ، وهي عايشة في فيلا هنا، عايز تسكنها لي في قطية بعدين !!! ، وبعدين يا ودالعمدة الناس بقولو اتزوج زولة من منطقتك، ما تتزوج زوله عاداتها وتقاليدها مخالفة لي عاداتك وتقاليدك .

اخذت دقات قلب ودالعمدة تتسارع ، ألجمته الدهشة خاب ظنه، لم تبلغ احتمالاته الغافلة ابعد من ان برفضه والدها بذوق، وشعور بالعجز يتنامى داخله، وهو يغمغم في قرارة نفسه

أبان تلك الهنيئة شعر ودالعمدة بالإهانة تجترح حلقه ، كأن حياته على المحك حينما سمع ما كان ينتظره بوجل ، يتألم كثيرا من هول المعاناة التي تسبق النهاية.

اغرورقت عيناه الخضراوان ، قبل ان تنزل دمعة متمردة على خديه، رغم ذكورته المستفحلة .

أفاق من شروده هذا على صوت والدها يقول:

– أبعد عن طريق بتي بالتي هي احسن عشان ما تتأذي .

استجمع ودالعمدة حباله الصوتية ، وبصوت مبحوح اردف:

– اطمن ياعم ، ما أنا البعرس لي واحدة أهلها ما عايزني ، عندنا في

ثقافتنا الزول بعرس الناس البتشرفوا بيه ، ما البتشرف بيهم هو .، وامل دي أنا تاني ما عندي بيها علاقة ، حاخليها احتراما لذاتي ما كبرياء ، أنا المابعرس لي واحدة أهلها عندهم راي فييني !

فرغ ودالعمدة من تلك الكلمات وهو يسدد نظرة قاسية باتجاهه، وشعر بأن شاربه يطول، هب واقفًا، واستدار وهو يسوق خطواته نحو الباب ويحمل في أحشائه جرحًا غائرًا ، أحس أن رأسه امتلأت بالدمع من الداخل، فاستدار وهو يسوق خطواته نحو الباب ، تبختر هادئًا غير هياب ، حتى ابتعد في خيلاء .

كانت أمل هي الأخرى قد علمت ما حدث بواسطة والدها الذي كذب لها بكل صدق وهو يلحف شاربه وهي صدقته بكل كذب في وصف تعامل ودالعمدة معه بغطرسة، وأطلق عليها كبرياء زائف .

لان حبها كان عاتيًا جبارًا، عصفت بها الصدمة وزلزلت قلبها الصغير، وسحابة حزن استقرت على مآقيها.

قبعت خلف غرفتها لأسابيع طويلة، يجتاحها حزن عميق ولأيام طويلة تدوي بصرخات هستيرية وهي تهيل التراب على رأسها .

ذبلت عيناها التي كانت تتسع حدقاتها ويبين جمالها، أوغلت فيها مظاهر الحزن والعبوس، وآضت تضج بالمعاندة والنفور ، تحمل بداخلها طبائع مغايرة .

دفعها والدها للتفكير في السفر الى إحدى جامعات بلاد العم سام، فهذا نهج متبع بين سائر أبناء الأثرياء في العاصمة الخرطوم ، وهي في

غمرة كآبتها ، حاصرها الملل والألم ، ولم تجد حلًا لازمتها الا بالامتثال لأوامر والدها وتخنع على السفر .

معوزة تلك المرأة الملتاعة ، التي لفظتها ثمالة الحب الى جب الهاوية ، التي تبكيها اصلا لمسة الريشة .

مرت الساعات وطعم الفراق مازال مر ، جلس ودالعمدة قبالة كبري المنشية لأخرى أن يسمى كبري الجريف، لعراقة تلك المنطقة .

يراقب الشروق كأنه مغيب ، لاحظ أن الشاحنات تأتي وعلى جوفها البضائع ، وتخرج فارغة ، فأسرف فكره في شأن الاقتصاد السوداني وخُيل إليه بأن الجنية السوداني سيهبط مقابل العملات الاجنبية، لأن الاستيراد أكثر من التصدير.

ما إن بانت الشمس وغارت النجوم حتى دلف الى غرفته، اهاجته الذكريات وصار يذرف الدمع، كما يذرف السحاب المطر، مؤلم جدًا أن يزعجك شيء وتعجز عن وصفه، فتذرف الدمع وحيدًا .

وصار ينام كل ليلة، وفي صدره أحاديث، لا يجد من يخبره بها، يلائمه قول الشاعر، يوم قال :

جرح في ظهر الحصان تحت السرج متداري .. لا الخيل يشكي ولا الخيال داري

هكذا عدت أسابيع عجاف على ودالعمدة متوعكا فقد اهاضته الحمى غير أنه مهيض الجناح ينسال دمعه على خده المغضن الأسمر ، وتخنقه عبرات الأسى ، ملامحه الرقيقة ذبلت، صارت توحي بالاختبال،

رائحة الألم منبعثة من دموعه الآخذة في النزف .

ذات مساء ماطر ، دلف إليه والد صديقه وهو يصيح:

– ابشر ياودالعمدة ، خلاص قالو السيل وقف في قريتكم وقطعت ليك تذكرة في بص الساعة سته صباحًا ، طبعا قالوا القطارات وقفت عشان الجماعة ديل لما جوا الحكم استثمروا في البصات ، ووقفوا القطارات عشان ما ينافس عرباتهم ، الله لا كسبهم وقفوا حال البلد .

احس ودالعمدة بجذل عامر ، فقد كان يساوره حزن عميق نحو فراق مجثمه، والذكريات تداعب حاضره بماضي سحيق غور على النسيان ، قال ممازحًا والد صديقه :

– يعني شنو تقطع لي تذكرة وتجيبها لي لحدي عندي ، دا اسمه طرد بالذوق يا عم صالح. فضحك الاثنان معا على نكتة ودالعمدة خفيفة النكهة .

اوقدت في قلبه شمعة لقاء مجثمة، وضب أمتعته واسترق غفوة ، ظل هائمًا فيها ما بين اليقظة والأحلام إلى أن تثائب القمر يقبل جبين الشمس لتأذن له بالرحيل، حينها حمل امتعته الجوفاء، وسار بخطى وئيدة ، وفي بهو الصالة قابل حاج صالح وعلي الذي كان يحاول جاهدا منافحة فلول النوم، وهو يردف:

– والله صحي المفارق عينو قوية ، عايز تمشي من بيتي وما تودعني ! فقد كان ضيفًا على رجل قادرًا على المرح.

أجال ودالعمدة يديه عميقًا داخل جيبي الصديري ، وتحسس ساعته

في الجيب الأيمن منه قائلًا:

– طبعًا ما كدا ياعم صالح ، بس الزمن بدري شديد وما كنت داير ازعجكم.

قبل ودالعمدة جبين والد صديقه ووالدته ، وتصافحوا في ودٍ عميقٍ ، وسار متثاقل الخطى نحو السيارة تاركًا جميل الأثر في منزل صديقه.

على أطراف القرية كان يسير ود العمدة بأطراف أنامله كطفل مرعوب ،سالكًا طريقه الفج ،بعد ان أعطى الطريق نظرة فاحصة ، ويشتم رائحة الموت ، والريح تحمل رائحة دم خفيفة ، ضاق فكره عن رؤية الحقيقة ، عاد الى قريته ، بعد ان تعلم الكثير وغاب عنه الكثير .

كان الطريق وعر والظلام حالك ، تمرغت ساقاه في الوحل ، وهو يتأمل سماءً لا قمر لها ، وأصبحت القرية ككتلة من الثلج ذاب ما حولها وتغيرت ملامحها مع الزمن .

يغيظه هذا المساء الملبد بغمام خريف، والسماء تمطر فاجعة ، يجول بنظرات مرتجفة نحو القرية ، يسارع في المشي بخطوات واسعة ، يشد في خطواته رغم عدم تبينه لموقع اقدامه في ازقة ضيقة متعرجة ، يرتعد من الخوف يرتجف حينما يسير وكل أطرافه تتبعثر ،راحت الأسئلة تتفجر في ذهنه بلا اجوبة

حل الخراب على القرية ، وكلاب عُقُر مقتولةٌ بوحشية على قارعة الطريق، بعد أعوام صبغتها كل الالوان الساطع منها والقاتم ، آضت القرية محفوفة بالمخاطر ، رنا ودالعمدة ببصره مستطلعا وهو يطلق خياله للعنان . هكذا كان يمر الوقت عليه سريعا ، يحمل بين دقاته انفجار

الموت البطيء، وهو يحاول جاهداً غماطة اللثام عن تلك الأرض الوالغة في الدماء .

أخذت الغيوم تتجمع بسرعه في رأس ودالعمدة وكل شيء ينذر بهطول عاصفة هوجاء ، فقد يسفر الأمر عن خيبة مريرة .

الليل مازال مطبقا ، وكف قلبه عن الخفقان ، حينما وصل المنعطف الأخير لمنزله ، و وهو ينوي امرا ، فالخوف من الألم اشد ايلاما من الالم ذاته .

تخطت الساعة الخامسة بدقائق ، دلف ودالعمدة الى صالون العمدة الخليفة متجهم الوجه كالضوء ينبثق في وسط الظلام وهو يحوم فوق رؤوس الجميع ، وصاح :

اي حزن قد اصابكم ؟؟ ما هذه التجاعيد التي أراها على وجوهكم ؟؟؟ وكان يثير زوبعة من التساؤلات .

نهض العمدة الخليفة من (العنقريب) الذي بدأ يعزف لحنًا باكيًا في وثبة واحدة ، تتحامل عظامه الشائخة ، وتتلاعب ابتسامة مرهقة على شفتيه، في غابر الزمان كان العمدة الخليفة يحمل عصاه متهللا بالفرح ، والان آض يتحامل عليها بعد ان مارس عليه الزمن فعله .

كانت الوجوه مرهقة ، خائفة ، فعمليات الاختطاف اشتدت وطأتها.

عانق العمدة الخليفة ابنه ، احس وكأن قواه تخور ، يتصاعد احساسه بالوهن ،فجلس بجسده الضعيف في ذاك الكرسي المستطيل ،شاغلا فيه حيزا اقل

التحف ودالعمدة على الأرض جلوسا ، يتكئ على الحائط ، يجول بنظراته حول الحضور ، فوجد حاج احمد ، الذي كان رقيق الملامح ، طالت لحيته وذبلت ملامحه النضيرة ، تظهر كل أسنانه الكبيرة الصفراء

أصبح كلُّ أهالي القرية لا يشعرون بأنهم أحياء الا إذا فكروا في الموت.

تلت تلك اللحظات صمت رهيب ، وودالعمدة يدور ببصره فوق الوجوه ، كأنه يستغيث بواحد من الجالسين .

فالتفت نحوهم مدفوعا بقوة قاهرة وفي عينيه كل علامات العجب والاستفهام التي يمكن ان تخطر على بالهم وهتف ناهضا:

– يا جماعة ما قلتو لي الحصل شنوا ؟؟ في شنو في القرية ؟؟

ران الصمت عليهم حتى استجمع حاج الصافي حباله الصوتية واسترسل يقول.

– والله يا ودالعمدة ، القرية بقت ما امان ، نهب وقطاعين طرق ، ومرات بدخلو القرية يسرقوا حاجتنا في وضح النهار وعلى عينك يا تاجر ، ابوك ذاته العمدة الخليفة كان مخطوف وربنا فك اسروا الليلة يادوب!

دهش قليلا في أول الامر وارتبك ، كان لسانه ملتصقا بسقف حلقه ، العمدة الخليفة لاذ بالصمت ، واحس بخفيف نظرات ابنه فوق وجنتيه .

– يابا متين حصل الكلام دا ، وخطفوك كم يوم ؟؟ وديل منو اصلا؟؟، معقولة يخطفوا العمدة ذاته ؟

أدرك العمدة الخليفة انه مطالب بالإجابة عن جملة من الاسئلة ، ربت على كتف ابنه واردف:

- اشرب ليك حاجه اول ، وبعدها نتكلم !

وهو يمنح ودالعمدة ابتسامة تؤكد له إنه بخير .

قدم الطيب لشقيقه كوبا من الشاي الساخن بتوهج وجهه بفرح طاغ وعيناه كانتا تشعان بريقا اخاذا لحضور اخيه ، فتناوله ودالعمدة بامتنان ، وهو كله آذان صاغية لحديث حاج الصافي، بصوته المبحوح وهو يقول :

- في عرس عمر ود حاج الصافي ، الناس كانت مبسوطة ، فجاءة كدا جوا الجماعة ديل ونتلوا العمدة في لب القرية !

انتقل الحديث لحاج احمد ، الذي لم يكن يتحدث طويلًا، ولم يكن يصمت طويلًا:

- الحاجه المحزنة ياودالعمدة أغلب قطاعين الطرق ديل متعلمين، وبتاعين جامعات، وفي منهم عندهم شهادات عليا، قالو شنو الحكومة هاضمة حقوقهم لازم يجيبوها بضراعهم !

استرق العمدة الخليفة الحديث واردف:

- لما خطفوني، ورا الجبل، قالو لي يا العمدة أعفي لينا نحن مشكلتنا ما معاك مشكلتنا مع حكومة السجم الرماد دي، لكن أنت برضو بتمثل ذراع ليها وبتخدم مصالحها، عشان كدا حتقعد معانا شوية، كرت نضغط بيه علي الحكومة .

أخذت دقات العمدة الخليفة تتسارع، حاول أن يبكي لكن خارت قواه عليها، وتحولت محاولاته إلى انفجار بالضحك .

افاق ودالعمدة بخمول وتثاقل وانفكت عقدة لسانه قائلًا :

– لي نحن عايشين في غابة ؟؟ كان تمشوا تفتحوا بلاغ في قسم الشرطة.

انفجر حاج أحمد بالضحك وهو ينظر لودالعمدة قائلًا :

–طبعا عملنا كدا، بس بي صريح العبارة ناس الشرطة قالو لينا، الخطفوا العمدة ديل ناس ابو دقن ، ونحن ما بنقدر عليهم، عشان كدا حاولوا اقعدوا معاهم في جودية واقبلوا بالمساومة، من أمن العقوبة أساء الأدب .

كان ودالعمدة رغم الإرهاق والوهن ، والدهشة ملازمة له، هادئًا في تصرفاته ، فقط يسترق السمع ويراقب الأشياء في صمت مُتقن.

وأضاف حاج احمد:

– رسلنا ليهم حاج الصافي عشان يتفاوض معاهم، طلبوا انو نديهم المحصول بتاع السنة دي كله ، وكمان عقود الاحتكار بتاعة الأراضي اللات الجبل !

وبشعور آسن قال حاج ادريس ، مجسدا لمقولة (حينما وزع الله الأرزاق ، فلا أحد عجبه رزقه، وحينما وزع العقول كل شخص عجبه عقله، ويتهيأ اليه انه أفضل العقول) ، وآض يحمل براثن الضغائن لحاج الصافي وهو يردف:

– والله نحن الغلطانين ، رسلنا زول يتفاوض معاهم ، وهو زول واو الضكر ما بعرفها !

تلك الكلمات اخترقت أذهانهم وسممت الجو ونشب خلاف ، كاد ان يقود للاشتباك بالأيدي، لكن حكمة حاج أحمد كانت سابقة وهو

يزجر:

– سيبك منو ياحاج الصافي ، الحاج إدريس دا، أصلو من يومه ماسخ زي مويه الترمس.

العمدة الخليفة، بعض الأجزاء لديه فسدت ولم يعد بالوسع إصلاحها ، فزفر قائلًا لودالعمدة:

– بعد الحصل دا ، أنا قررت أرحل الخرطوم، زي ما ناس كتيرين من أهل القرية رحله، ورب هنا رب هناك.

طأطأ المجلس رؤوسه، كما يدفن النعام رأسه تحت الرمال، وطافت سحابات الحزن حولهم، وصورة القرية في ذكرياتهم الأولى، لا يعلوها غبار الزمن، ولا صدأ الأيام .

اغتنم حاج ادريس فرصة الحديث وهو يتحسس شاربه، كان يعمل سائقًا في إحدى المدن المجاورة ويعتاش منها أردف:

– ليك حق والله يا العمدة ، أحسن الخرطوم ، ياخ سيبك من البشر للعربات ذاتها أحسن .

زوى العمدة الخليفة حاجبه، ونظر إلى حاج إدريس بعد أن توقف قائلًا:

– كيف دي بس اشرحها لينا ؟؟.

عقد حاج إدريس ذراعيه خلف رأسه ومضى يقول بإسهاب:

–أول حاجة الشوارع أحسن في الخرطوم من المدن والقرى، والعربية ذاتها عندها تروس تعاشيق يعني نمرة واحد واتنين إلى نمره خمسة ،

والعربية ، بتكون مرتاحة في نمرة خمسة ترس خفيف، وفي القرى والمدن، ما في شارع نضيف ومسافة طويلة عشان تمرحل التعاشيق لحدي الترس نمرة خمسة، والعربات الأتوماتيك ما بتشتغل بي كفاءة في القرى، ولو عطلت ما في زول بقدر يصلحها.

قاطعه العمدة الخليفة، وهو يصفق يديه في غيظ:

- عليك الله اسكت ما عايزين فلفسة كثيرة.

كان ودالعمدة غارقًا في وحل همومه، في اقبية الصالون، ونسي إنه يضع رجل فوق الأخرى وهو يردف:

-اسمها فلسفة يا يابا ما فلسفة !

ارتفع فحيح العمدة الخليفة وهو صؤول كحية شوهاء تقذف السم، القى الكوب بكل قواه كي يرتطم بالحائط، ويتناثر حطامه مع بقايا الكوب.

وثب نحو ودالعمدة ، وأمسكه من ياقة قميصه بقبضة قوية، فتراجع الى الوراء قليلا حتى لامس قفاه الحائط .

وفي لحظات تحول قميصه الأبيض الناعم الى قطع متناثرة، بعضها معلقًا بجسده، وتناثرت البقية على الأرض.

كانت الحروف تندفع من فم العمدة الخليفة يرافقها رزاز من البصاق

.

- دي الجامعة علمتك كدا ولا دي الخرطوم علمتك تصلح كلام ابوك ، شكلك ياولد نسيت التعليقة من رجلينك علي سقف الصالون دا،

وضرب كرباج القطران !

شعر ودالعمدة بجسامة الخطب .

جالت نظراته لتستقر على الأرض وسأل والده الصفح والغفران .

- أنا أسف يابا.

لكن الاعتذار لم يكفِ لمداواة ألم العمدة الخليفة، حتى بعد أن أعتذر إليه ذلك الاعتذار الذي يؤثره ويرضاه .

وتصاعد توتره كزئير الأسد قائلًا :

- آسف ؟!! ، أسف دي عندك هناك في الخرطوم ، هنا عندنا اسمها معليش، وشايفك كمان بقيت تتكلم بي صوت ما بتناسب مع عاداتنا وتقاليدنا .

دحين أمشي سلم على أمك العيانة دي، راقدة في حوش الحريم، وبعدين عندي معاك كلام تاني .

دلف ودالعمدة إلى بهو المنزل، يجرجر نظراته على الأرض، يقف لحظة قرب شجرة النيم مجتثة الفروع وهي متوحشة بالظلمة.

كان ثمة بقعة من الضوء تلوح في الأفق يلتقط انفاسه يحاول التعرف على ذلك الجسد الهزيل، إنه ضعيفة مستطيلة، أدركها من الوحشة عند دخوله، ارتعشت نظراته حينما عرف إنها والدته.

راح يقبل يديها، وظلت يديها في جوف كفه يداعب أناملها يدها دافئة وهي تلامس كفه، يتوه قليلًا في هذيان اللحظة وحركة حاجبها الطفيفة وهي متورمة الجفون، لاحظ خلالها الدموع التي تكسو وجنتيها ، كانت

متوعكة عرف بأنها ستبكي ، وترتجف شفتها السفلى قليلًا ، تنسال دمعها فوق خدها المغضن .

تحاول أن تجمع أشلاء لسانها الذي تناثر في الهواء تحت وقع نظرات ابنها وخرج صوت من العتمة :

– جيت متين من البندر يا ولدي ؟؟؟ تتسحب متل ضل الضحى !

أجاب ودالعمدة بهدوء وهو يكتشف بذهول عن كتفيها النحيلتين اللتين ارتسمت عظامهما تحت اللباس، وطفرت الدموع على عينيه واندفعت خارجة

–جيت قبل شوية كدا ، قالو عيانه مالك يا يمة في شنو ؟؟ ولي ما في زول منكم في الجوابات قال أنتِ عيانة؟

تنهدت حاجه السرة وهي تزفر قائلة:

– يا ولدي الشكية لي غير الله مذلة، والكبر حسنات، والمرض زكاة الجسم، وأنت في الغربة ما كنا بندور نجهجهك ونقلق بيك، قالوا عندي نقص في اليود، ومشاكل في الكلية، والغدة، وأغلب ناس القرية عندهم نفس الأعراض دي! .

تراقصت الدهشة على محياه وهو يقول:

– لي من شنو والسبب شنو ؟

حاجه السرة:

–ماني خابرة السبب ، لكن لمن جابوا الخبرة ، قالو دي من الموية البنطفح فيها دي، غير صالحة للشراب ..

احتضن ودالعمدة ردها بعينيه الغائرتين، احس برغبته في أن يحتويها بين ذراعيه ويداه تطوقانها ويدفن رأسه في صدرها وينام إلى آخر يوم في عمره، أضاف ودالعمدة :

– اها وعملتو شنو ؟؟

قالت حاجة السرة بعد أن امتلأت راسها كلها بالدمع من الداخل وأطلقت سراح دموعها :

– بنطفح في الموية ذاتها، عاد يا ولدي نموت من العطش يعني !؟؟، وبعدين كلها كم يوم ونلحق ناس أخأختأمنة في الخرطوم، زي ما قال ابوك العمدة ، دا موسم الهجرة للخرطوم.

أحضر ودالعمدة كوبًا من العصير، وألح على والدته شربه، وهو يضغط على فمها بحافة الكوب، بيده الجنفاوية .

تخطت الساعة الخامسة بدقائق، اوى ودالعمدة الى غرفته الطينية التي ترتعش جدرانها في وجع، وفراشه البارد، يتغلغل في أحشاء الظلام متيمنًا ، متيسرًا ، يتوق إلى نوم هادئ، قد بلغ به الإنهاك غايته.

دور جسده واستلقى على ظهره حاضنًا رأسه بين كفيه، تداعت إلى الذاكرة أشياء، عاد يبتسم من جديد ويستشعر دفء المكان وحميميته حتى ذهب في نوم عميق .

كان النهار قد انتصف، العمدة الخليفة يلقي خطبة الوداع اعتلى المنصة وحدث في حشود الناس وهو يفارق مأواه الأبدي الذي يأوي إليه المسافرون القادمون من الأماكن البعيدة .

اليوم مع دنو الرحيل أقول كلمتي :

إن من بلغ السبعين اشتكى من غير علة، وأنا لا أقول لأشتكي، إنما أقول ابتغاء تسجيل شهادتي على هذا الزمان، وهذه البقعة الجغرافية التي قدر لي أن أولد فيها، وأخوض حياتي فيها، وأعمل وأنجب وأكابد .

في الهزبع الأخير من عمري، في خاطري براكين ومراجل تغلي، و أماني عشت لها حققت بعضها، وخضت العباب، لولا سفري للخرطوم لضاع صوابي !!!!!!.

كان يرتجف والكلمات تتناثر من بين شفتيه متقطعة ممزقة الحروف، الألم مبثوثًا في قسمات وجهه ، منعكسًا على جبهته التي اكتست بأسف عميق .

احتضن العمدة الخليفة أهل القرية فردًا فردًا حتى كلت يداه، يحس بدغدغة ناعمة على كتفه، وتنهمر دموعه على وجناته الشائخة، يودع ساكنه الوداع الاخير .

نظر إلى من حوله وتفرس في الوجوه التي كانت بعضها حزينة، وبعضها الآخر ذات ملامح حيادية ، يغفو قليلًا خلف عمامته ، يمارس حزنه على القرية.

هكذا فارق قريته التي عاش فيها حقبة من الزمان، أزمع عنها الرحيل تنازعه نفسه إلى أخرى، فراق آدم جنته، شريدًا حائرًا ملتاعًا.

حاجه السرة هي الأخرى، تذرف الدمع ، كما يذرف السحاب المطر ، وصاروا كما الفريسة في مصيدة التف حولهم الناس حتى تحركت رتل

(اللواري) وهي تئن بحملها في رحلتها إلى العاصمة الخرطوم .

كانت الشمس قد لبست ثوبها الثالث، العمدة الخليفة لم ينتظر حتى يضئ له الفجر الطريق .

صاح حاج الصافي:

– ما تنسى يا العمدة تشوف لي بيت قريب لي بيتك ، أنا إن شاء الله ، حأحصلك الأسبوع الجاي !

وبات أهل القرية يلوحون لهم بإشارات الوداع، حتى اختفى رتل السيارات، في اتجاه مشرق الشمس .

كانت الشمس في كبد السماء ترسل وهجها، فقد بلغت أعلى مدى لها، حينها كان يخطو العمدة الخليفة خطواته الأولى نحو العاصمة الخرطوم .

يجول بنظرات مرتجفة يدور بصره حول الوجوه، لعلها تصطدم بهيأة حاج عبد الرحيم، زوج حاجة آمنة شقيقة السرة .

كان يصر على محادثة السابلة، ويلقي السلام عليهم مرارًا، ورأى الناس من بعيد يبدؤون حركة أيامهم المعتادة .

رويدا رويدا اخذت تتجمع الغيوم في سماء الخرطوم ونزل المطر مدرارًا، غريب أمر الخرطوم ، فكل فصول العام تعرج عليها في يوم واحد !!!! .

دأب العمدة الخليفة على انتظار حاج عبدالرحيم، وتضاعف حنقه وهو يضع حقيبته فوق عمامته التي تغطي جل جبينه، وأطراف جلابيته تحت أسنانه.

فقد فضح المطر عورة العاصمة، وأزال المساحيق عنها، صار العمدة الخليفة كما التائه في ليل من غير قمر، فزفر قائلًا لحاجه السرة التي كانت مذهولة بالعاصمة ، وتعبث بأناملها على أهداب الفستان والابتسامة تكبر على شفتيها ، سرعان ما خُيل إليها إلى بواسطة الخرطوم ستفتح أمامها كل الأبواب الموصدة حتى امتقع لونها .

– أنت مش محمد ولدي كتب لينا العنوان قبل ما يسافر ؟؟

أجابت حاجة السرة بإماءة رأسها ولم تنفك عقدة لسانها بعد .

بعد عناء وعون اناس شتى، وجد العمدة الخليفة ضالته، وقابل حاج عبدالرحيم مكدر المزاج وهو يزفر قائلًا:

– مالك ما انتظرتنا في المحطة ؟؟

أجال حاج عبد الرحيم يديه عميقًا داخل جيبي الصدار وتحسس الجيب الأيمن وأخرج علبة سجائره واخذ واحدة :

– أنت يا الخليفة قايلها دي القرية ، هنا ما في زول بلاقي زول ولا حاجه كل زول في همه.

فزفر دخان سيجارته المتشابك إلى عنان السماء.

العمدة الخليفة:

– شايفك كمان بقيت تشرب سجاي، وبعدين تقولي لي الخليفة كدا حاف ما في العمدة

بسخرية مفرطة ضحك حاج عبدالرحيم وهو يطلق عبارات التهكم على العمدة الخليفة:

– عمدة شنو يراخ الوضع اختلف، أنت هنا في العاصمة الخرطوم الكثوف اتلاحقت، لازم تتماشى مع حاجات الخرطوم .

امشي اخد ليك غمدة ، لا من الغدا يجهز.

مال ميزان النهار وانحدرت الشمس لمغربها، العمدة الخليفة ما كاد يغمض عينيه قليلًا حتى أحس بدغدغة ناعمة على كتفه.

ففتح عيناه شبه المغلقتان وهو ينافح فلول النوم ، وجد انه ودالعمدة يقول بصوت حشرجة :

-يلا يابا الغدا جاهز.

نهض العمدة الخليفة منهكًا ، واهنًا ، غارقا في العرق، بخطى وئيدة اغتسل واتجه نحوهم ، ببدن مثقل وروح مجهدة.

كانوا يجلسون في شكل حلقة عريضة ، جاثين على الأرض، فقال حاج عبد الرحيم قاصدًا إذابة جدار الصمت:

- آها يا العمدة لقيت الخرطوم كيف ؟؟؟

عدل العمدة الخليفة جلسته وأردف:

- والله ما بطالة، وبلد كبيرة شديد، وناسًا كتار ، تصدق يا اخوي أنا قبيل ، لما شفت الناس الماشين بي رجولهم قلت الخرطوم دي ما فيها زول راكب عربية، ولما شفت العربات قلت علي بالطلاق ما في زول ماشي بي رجولو

اغتنمت حاجه امنه فرصة الحديث وقائلة:

- وأنت يا السرة أختي لقيتي الخرطوم كيف.

استيقظت حاجه السرة من غفوة طويلة ومضت تقول بإسهاب:

- بري يا أختي عندكم جنس عربات، بتجري سريع، لكن الخرطوم سمحه، أنا زمان زعلت من محمد ولدي لمن قال بدور يعيش فيها، الحين يادوب عرفت إنه معه حق، وكمان ما شاء الله الرغيف بتاعكم كبير، لكن العجور ماسخ ماليو طعم.

فضحكت حاجة امنة بإفراط وهي تحاول جاهدة أن تقنع أختها بأن الذي لفظته الى معدتها ليس عجورًا وإنما خيار .

ومحاولة إقناعها كانت كالنطح في الصخر الأصم .

في نهاية الأمر، أردفت حاجه السرة التي كانت زجلة الى حد ما :

– ما مشكلة في النهاية اللتنين بنات عم .

لم يكف العمدة الخليفة عن طرح الاسئلة، وبـدوره أدرك حاج عبدالرحيم إنه مطالب بالإجابة عن جملة من الاسئلة حيث قال:

– طبعا يا الخليفة، أنا لقيت ليكم البيت دا، بعد تعب واجرتو لي سته شهور، وبي تمن غالي شديد، لأنه سيد البيت قال ما بقبل بأقل من كدا، عشان في طلب علي البيوت، لأنه في الفترة الاخيرة دي النزوح بقى كتير علي الخرطوم، والسكن البناسب مستوى دخل النازحين مناطق طرفية، زي مكانا دا.

لم يجد العمدة الخليفة غضاضة وهو يزفر قائلًا لحاج عبدالرحيم :

– طيب لي أنت ما اشتريت لي روحك بيت واشتريت لي معاك، لحدي ما أجي كان ونتحاسب

قطب حاج عبدالرحيم حاجبيه ، وهو يرسم على محياه ابتسامة خبيثة وأردف:

– طبعًا دا الغلط الوقع فيه، أغلب ناس القرية زي ناس حاج موسى ، في سماسرة غشوهم ، وباعوا ليهم اراضي ما فيها خدمات ، دا غير انو طلعت هي مجاري سيول.

بدأ ليل الزمن بنشر غطاءه الكثيف ، في اون كان يرسل القمر آخر شعاع للشمس حتى تأذن له بالرحيل ، قالت حاجه السرة:

– أنتِ يا أمونة يا أختي، بيتنا ما يكون بعيد من هنا ؟

فقاطعتها حاجة آمنة قبل أن تكمل حديثها:

– بري يا اختي ، بيتكم فركة كعب مننا .

في صباح اليوم الموالي ، كانت الأرض واللغة في الدماء في اقبية المنزل بفعل ذبيحة العمدة الخليفة كرامة لداره الجديد ، حيث لطخ يداه الداميتين بالحائط.

لقد اصبغت الحياة الجديدة على أهل العمدة فرحًا غامرًا غير مسبوق، واخذت حياتهم منحى مغاير.

كان ودالعمدة قد بلغ الأطوار النهائية وهو غارق في وحل القراءة مدفونًا بين صفحات الكتب فقد بات على أعتاب التخرج .

وجد الطيب صعوبة في العثور على عمل والطيب وفي خاتمة المطاف، توسط له جارهم ذي القربى بعد أن ثكل عاداته وتقاليده، وانتزع ما بداخله من نبضات رحمة وانسانية ليعمل في جهاز أمن الدولة.

كان فخورًا بمهنته، يغالي في التباهي بها، كان كبرًا في عينه وصغير في أعين الآخرين، وآض يعتاش من أذية الناس، وصار يحمل على عاتقه نفقات المنزل، يعود إلى البيت متعبًا متبرمًا يتوق إلى نوم هادئ، فيتجه الى غرفته مباشرة ويذهب في نوم عميق .

بينما حاجه السرة ترعى المنزل، وتهتم بأطفال ابنها وفي كثير من

الأحيان تجوب الخرطوم طولًا وعرضًا بصحبة اختها ، العمدة الخليفة يقضي اوقات ما بعد الظهيرة في أقبية منزله، مع مذياعه ذو الثراء الاستثنائي، كان حاج عبدالرحيم يتردد عليه بين الفينة والأخرى ليكافح الوقت بالأنس.

هكذا مرت السنوات وطعم الفراق مازال مر على العمدة الخليفة ، تحول من إنسان يحلم الى انسان يتذكر بعد أن مارس الزمن عليه فعله .

يحمل في أحشائه جراحات لم تضمد بعد وبات يشعر بنوع من الحنين لرائحة زمن مضى، حينما يعود إلى ذكرياته الأولى يفتقد ملاذهم الآمن الذي يحصل فيه على ضحكات صافية في أواخر الأمسيات والتجوال تحت المطر ، النهار المغطاة بالغيوم ، وصخب الضحكات المتعالية مع الأصدقاء بين الفينة والأخرى بعيدًا عن صخب العاصمة الخرطوم وأبواق السيارات .

تحاصره الذكريات ، لم يكن ينام إلا مدة قصيرة حين تسنح له الفرصة ، كلما يغمض عينيه يرى طيف أهل القرية ، بشعرهم الأشقر، وملامحهم النضيرة ، تعلوها ابتسامات، خبأتهم الذاكرة في تلافيفها فيمتعض حد الحسرة .

في أواسط شهر نوفمبر، والشمس في رحلتها إلى الوقوب كان خالد الصادق صديق ود العمدة، وهو يجول بنظرات زائغة خارج الحافلة بعينيه اللتان كانتا تشعان بريقًا أخاذًا، وهو شارد الذهن .

كان ذلك اليوم أكثر انزواءً يجلس بجسده النحيف في المقعد شاغلًا فيه حيزًا أقل، يقدح ذهنها ويقلب الأمور في رأسه لعله يجد حلًا، لأحد المأزق الواقع فيها.

لم يفق من شروده هذا إلا حينما لفت انتباه أحدهم وهو يربت على كتفه.

حينها أفاق خالد الصادق بخمول وتثاقل ، وأخرج السماعات من أذنيه ودور رأسه نحو جاره الذي بدوره لم ينطق بكلمة واحدة، فقط أشار إليه بسباته بحركة ذات مغزى نحو (الكمساري). فاستذكر مدركًا إنه لم يدفع التعرفة .

بحركة رشيقة أجال يديه عميقًا داخل جيبه، الذي يكاد يكون فارغًا إلا من يديه، فأفرد ذراعيه وهو يرسل التعرفة إلى (الكمساري) .

ابان تلك الهنية ارتفع فحيح الكمساري كحية شوهاء تقذف السم مطالبًا خالد الصادق بدفع جنيه آخر وهو يزفر:

– يازول انت ما عارف الحكومة رفعت الدعم ولا شنو ؟!!! والتعرفة

زادت .

نظر من حوله وتفرس في الوجوه التي كانت بعضها حزينة، وبعضها الآخر ذات ملامح حيادية ، وصاح كزئير الأسد:

– ياناس أنتو عاجبكم الوضع دا ؟؟؟ كفاية يأخ البلد دي ما معروفة ماشية على وين ؟؟ خلونا نلحق نفسنا، بكرة في عصيان مدني نظمناه نحن الشباب ياريت تلتزموا بيه .

صب الركاب جام غضبهم على الحكومة، فقد وجدوا ثقبًا ينفثوا من خلاله النيران التي تكبح جوانحهم، وجاثمة على صدورهم .

كان هناك ثمة أحدهم يجلس بمحاذاة السائق، مليح التقاطيع ، ذات ابتسامة غامضة ، يرتدي بدلة اشتراكية لونها خاطف يتأرجح بين الرمادي والسمني، تنتفخ اجنابها بالسلاح، ونظارة شمسية، يرسم على محياه ابتسامة خبيثة.

بأعصاب من فولاذ، أخرج هاتفه واتصل على أناس لم تعرف هويتهم في أول الأمر، لكن سرعان ما فضح أمره بعد مضي وقت ليس بالطويل، حينما حضر (بوكس) كسرعة البرق، ولو كانت في تلك اللحظات المقصودة سيارة إسعاف لإنقاذ شخص ما، لم حضرت بتلك السرعة .

هب واقفًا وطلب من خالد أن يعتلي معهم العربة .

قالها في لهجة حاسمة مع إن كل شيء بداخله يرتجف ، صمت قليلًا في انتظار جواب، عندما تأخر استرسل يقول:

– شغال تحريض في الناس ، الليلة ارجى الراجيك وابقى قدر كلامك

دا .

استجمع خالد الصادق حباله الصوتية وقال في نبرة حادة مع إن كل شيء بداخله يرتجف:

-أصلا أنا قدر كلامي، واخترت طريق عارف نهايته وين .

جاءته صفعة قوية لم يرى بعدها إلا ظلامًا، وفي نهاية المطاف اخنع بمرافقتهم حتى طالته يد الاعتقال التعسفي .

اما السادة الركاب صاروا كما في الأفلام الهندية ، يجيدون دور المشاهد عند نشوب شجار!!!!! ومات السؤال في خاطرهم .

المحمدة الوحيدة هي أن خالد الصادق أصبح خالدًا" في الذاكرة لأنه صادق" فيما يقول.

في مكان أخر، تخطت الساعة الواحدة بدقائق، مدينة القضارف الكبيرة نائمة كمومس مرهقة، بعد ان مال ميزان ليلة قرة من ليالي الخريف، ثمة أشياء صغيرة تعضد وتلسع .

كانت ليلة ليلاء ذاهلة النجم ما بين الطرفين ، ذهب ادروب واصدقاءه لاحتساء قهوة الشرق الأعتق من النبيذ بقليل، في أمسية ترشح بالهناء .

كان البرد يشتد، ونواح الريح يتزايد، لكن حرارة الحديث كانت تدفئه، انجرفوا في واد الاشياء التي تثير الغبطة وما آل اليه مجثمهم .

يطوف عليهم مجنون الفوا وجهه الشاحب، وملابسه التليدة، كان كثير الحركة في الأزقة الضيقة المتعرجة حيث الناس في ضجيج وهرج يطلب العون .

رأى ادروب في ظلمة ذلك اليوم وسكونه هذا الفتى البائس، أخرج من قعر جيبه بعض الجنيهات المهترئة، فأخذها المجنون بامتنان.

كان التعب قد بدأ يأخذ منه كثيرًا ، جثا متربعا على الأرض في هدوء اللصوص، واضعًا أطراف جلابيته الرثة تحت أسنانه، على بعد نصف متر من ادروب وأصدقاءه.

يحاول من وراء منظاره السميك أن يلتقط لهم خلسة، نسي أن يتنفس وهو يصغي إلى حديثهم عن سياسات الحكومة الرعناء، لبث شاخصا إليهم هنيهة، لا ينطق ولا يطرف .

أظلم الفضاء في عينيه، عندما عاد صديق ادروب، يصوب بسبابته نحو المجنون قائلًا: هذا فلان .

وصافحه بحرارة كصديق قديم !!!!.

كان المجنون يرتجف ، والكلمات تتناثر من بين شفتيه متقطعة ممزقة الحروف ، ارتبك في أول الأمر وجالت نظراته لتستقر على الأرض، فقد وجد نفسه أمام واقع لا مفر منه .

نهض المجنون في وثبة واحدة، حينما نال منه الجسد ألقى بجسده المترهل علي الكرسي، يتصبب عرقًا. ثبتوا أبصارهم في وجه صديقهم ، الذي شعر بأن عليه أن يقول شيئًا، فهتف ناهضًا :

هذا ابن عمي فلان ، حاصل على دبلوم من إحدى الجامعات!!!! ، زلزالًا مزق الأرض تحت أقدامهم لهذا المنظر المثير للاستغراب والدهشة ، تداعت الأفكار إلى ذهن ادروب كطوفان كاسح .

جاء صوت المجنون مضطربًا وهو يقول:

أنا فرد أمن ، تم تنصيبي حاميًا لهذه المنطقة، تصاعد إحساسه بالثقة وهو يمرر كفه فوق لحيته النابتة لحظة إفشاءه السر !!!!! .

مر بذهن ادروب صور باهتة لوجوه أفراد الأمن، امتلأ قلبه بكل ألوان الفزع، بينما صديقه شتمه، وسدد إليه لكمة قوية، لم يرى بعضها إلا ظلامًا وأردف:

– تقول لي ناس الحلة أنا شغال في الدهب وأنت قاعد هنا تتجسس على الناس !!! –

أضاع اسم قريته التي يطير صيتها وهبط بها من علياء مجدها حتى ألصقت أنفها بالرغام !!! .

تم اعتقال ادروب، بعد أن تكالبت عليه الأوباش، وأطلق المجنون ساقيه للريح .

فتح ودالعمدة باب منزله المتهالك بتقادم العهد، وبعصبية مفرطة قذف بالباب الذي لولا عناية الله لكان حطامًا على الأرض من هول تلك الضربة.

حينما صفق وراءه الباب، ساقته خطواته نحو والدته في بهو البيت، وهي تلطم على صدرها، حينما رأت الذعر في عينيه ممزوج بالغضب والشرر يقدح من عينيه حتى كادت أن تموت هلعًا حتى امتقع لونها وأردفت:

– بسم الله الرحمن الرحيم مالك يا ولد في شنو ؟

صار ودالعمدة يغمغم بكلمات مفادها أن الحكومة رفعت الدعم عن المحروقات والدواء .

رمقته بنظرة هازئة وهي تعبث بأهداب الفستان بعد أن احتضنت كلامه بعينيها الغائرتين وأردفت :

– وقعت قلبي يا ولدي، كنت قايلاك سقطت في امتحاناتك اللات السنة الأخيرة دي.

شقت طريقها إلى المطبخ، يتلقفها ثوبها المهترئ، وكل أطرافها تتبعثر .

ولج ودالعمدة متأبطا خيباته، كاظمًا غيظه إلى صالون والده، حيث كان حاضنًا العمدة الخليفة، وحاج عبدالرحيم، ونفر قليل من كبار السن في الحي ليكافحوا الوقت بالأنس .

ألقى عليهم السلام مرارًا بتحية فاترة وجلس القُرفصاء ملاصقًا لوالده يسترق السمع من حين لآخر وهم غارقين في وحل العصيان المدني، وكل منهم يلعب دور المحلل السياسي والاقتصادي في آن واحد، ولا علاقة لاحدهم بكلا المجالين لا من قريب ولا من بعيد .

أصابته عدوى الاكتئاب حينما حكموا على فشل العصيان المدني لسبب بسيط ، انه من تنظيم الشباب حيث قال العمدة الخليفة:

– الزمن دا ما في شباب بقدروا يعملوا عصيان زينا زمان !!

في صباح العيد المرتقب تثاءبت الشمس، وقبلها اصطبغ الافق باللون الاصفر، ابتلع العصيان السيارات في جوفه ، والفوضى العارمة

التي تعتري العاصمة الخرطوم، وعمت الفرحة النفوس.

رويدًا رويدًا، بدأت الفوضى تعم أرجاء العاصمة .

كانت عقارب الساعة في يد ودالعمدة تشير إلى إنها العاشرة صباحًا ، ساقته خطواته نحو الشارع وهو متلهب الصدر الظنون تأخذه يمنى ويسرى، ليرى العصيان المدني في يومه الاول .

بينما العمدة الخليفة يسترق السمع على الراديو متشبثًا بأصابعه العشرة عليه يتابع تصريحات الحكومة المتضاربة والرعب يتملكهم .

حينما كان ودالعمدة في طريقه الى المنزل، لاحظ شيئًا غريبًا، وحاسته السادسة اشتمت رائحة عناصر جهاز الأمن وكأن الشمس قذفتهم مع شعاعها، خُيل إليه بأنه يبالغ أكثر من اللازم، كان فريسة سهلة الاقتناص.

في ذلك النهار الأغبر تربص له الأوباش يحملون براثن الضغائن متهللين فرحًا، يهاب ودالعمدة من خوض غمار هذه المعركة، لحظات هي حتى تكالب عليه الأعداء، داهمته قوة مدججة بالأسلحة الثقيلة، وكان الشارع يكتظ بمواطني الحيّ والجيران، تقاطروا لمشاهدة هذا المنظر المثير للاستغراب والدهشة !!!

تم اقتياده الى مقر جهاز الأمن بمعية ثلة نيرة من الشباب في زعيق السيارات التي تمرق مسرعة إلى الطريق تتبدد كالدخان مخلفة صدى محركاتها النابح في أزقة ضيقة متعرجة.

وغل البوكس وهو يئن بحمله بينما هم معصوبي العيون .

كان كل واحد مكبل بحبل سميك في معصمه وأخر في قدمه يسمح

بنصف خطوة للسير، والعصابة على عينه شديدة الربط.

قال لهم الجلاد سيلقون بهم في جوف بئر عميق ، وطلبوا منهم كتابة وصاياهم ، وبعصبية مفرطة زج بهم في زنزانة .

بهلع انتزع ودالعمدة العصابة ليكتشف إنه فوق مجموعة من الأجساد في زنزانة ضيقة، مترين في الطول والعرض وسقفها يقترب من الرأس والناس في هرج وضجيج، فانقضوا عليهم وأوسعوهم ضربًا حتى تلطخت جدران الغرفة بدمائهم .

كانت الشمس تغرق في طبقات السحاب، وقف أحدهم، حيث كان ملتحيًا وصغيرًا السن نسبيًا ومتبلد المشاعر، أرغمهم عنوة أن يقفوا صفًا واحدًا ، مع رفع أياديهم والاتجاه نحو الحائط وهو يمطرهم بوابل من الإساءات، والضرب بعصى غليظة، وسياط طويلة .

كانوا لا ينامون، لا يرتاحون، يتحركون مثل الريح.

أطبق الكون علي الليل بصمته، وبدأ ليل الزمن بنشر غطاءه الكثيف، حينها أودع ودالعمدة الى غرفة التحقيق .

ملابسه متسخة ممزقة، على وجهه آثار كدمات، لحيته نابتة

لم يسمع سوى خطوات عنيفة لحذاء ضخم، رفع العصابة عن عينه يحملق في عتمة، اشتم رائحة دخان تبغ كتمت هواء المكان .

كان الضابط يتوارى خلف طاولته ، في أضابير الليل، بجسده السمين، تتدلى كرشه أمامه، في ذاك الكرسي المستطيل، شاغلًا فيه حيزًا أكبر.

هذا صار يجول حول ودالعمدة :

– اهلًا بودالعمدة الخليفة، من زمان كان مفروض نعتقلك ، قبل ما تزيد الطين بلة بي تنظيمكم للعصيان دا .

أنتو قايلين البلد دي سايبة ساي كدا، وبعدين نحن ما صدقنا إنك خلاص حتتخرج من الجامعة عشان نرتاح من الجوطة العاملها هناك، داير كمان تطلع تعمل في الشارع، وجابت ليها كمان عصيان ؟؟

دهش قليلًا وارتبك في بادئ الأمر، لكن سرعان ما استعاد تبسمه المعتاد

ويجيب بحنكته السياسية حتى نكص قلب الضابط، تنتابه نوبات من الهلع وهو غارقًا في غياهب التحقيقات، بينما الظنون ذهبت به كل مذهب، و يلح في السؤال أيما الحاح، والأرجل تركله بقسوة .

كان خالد الصادق بشعره المرتب في غرفة التحقيق المجاورة، رغم الإرهاق والوهن هادئًا في تصرفاته، يثير حنقهم برد مبهم وهو يداعب شعره الانسيابي المتشابك بأطراف بنانه من حين لأخر . قال له الجلاد :

لن تخرج من هنا قريبًا، نحن لا نتخلى عن ضيوفنا بسهولة، لديك الكثير من الوقت تقضيه في مستنقع الكفارة والتطهير !!!!! ، حتى تمتنع من ضخ سمومك إلى عقول العامة ، فأنت نبت شيطاني تريد أن تتحد بالآخرين، كحنظلة تشتبك مع ثمرة طيبة المذاق !!!!

تناقص القمر في قبة السماء واشتدت الظلمة ، وضابط تحقيق ودالعمدة في أحلك لحظات ضعفه، لم يكن يكف عن طرح الأسئلة بكبرياء مع إن

كل شيء بداخله كان يرتجف، يلوح له بالكرباج .

محاولًا إخفاء كآبته، وودالعمدة لم يكن يصمت طويلًا ولم يكن يتحدث طويلًا ، وظهره يكافح سياط الجلاد ملتحفًا أهداب الصبر .

تنهال عليه الكرابيج كالمطر بعد أن انتزع جلاده ما بداخله من نبضات رحمة وانسانية، حتى كلت يداه .

نظر اليه ودالعمدة بنظرة هازئة ويركز بصره طويلًا نحوه حتى تهزم الجلاد، كيف لا وهي نظرة المثقف المتحدية .

لأن شجرة الظلم لا تثمر شعور بالعجز تنامى داخله إلى أن يقبض ثمن ضميره الذي باعه بأبخس الأثمان .

قال الضابط في لهجة حاسمة:

– احسن ليك ياودالعمدة تتعاون معانا عشان تطلع من هنا .

وطلب منه أن يحكي كل شيء عن نفسه وحياته بالتفصيل وعن العصيان المدني

ابتسم ودالعمدة ابتسامته الساخرة وهو يقول :

كيف تمنحونا ما هو في الأساس حق لنا ، فبعصبية مفرطة ويد مرتعشة يأخذ الضابط نفسًا عميقًا من سيجارته، يزفر به في غرفة التحقيق، يرسم أشكالًا واهنة من الدخان، حتى ظهر فيه النصر لودالعمدة والتجمعات الغفيرة التي احتشدت، أوقدت شمعة النصر في قلبه .

عض الضابط على شفته السفلى حتى كاد يدميها ، جثى كالزعبوب ، ملامحه علتها مسحة قاتمة من إرهاق الظلم .

يهتف ناهضًا:

لا افهم ما تقول، أنت تتصنع الغموض تتلاعب بالكلمات إنها واحدة من طرائقكم في الإقناع .

في الهزيع الأخير من الليل زج بهم من جديد في الزنزانة الضيقة، ذات المترين في الطول والعرض ، وسقفها يقترب من الرأس، ينام ودالعمدة دون أن يتمكن من مد قامته الطويلة .

البرد يتسلل ليلا" من المكيفات الباردة، كنوع من ضروب التعذيب، ليحيل عظامهم إلى كتلة مثلجة.

صافح ودالعمدة خالد الصادق بحرارة، وسطع ضوءًا من نوع أخر مستضئ بهالة الثقافة والمعرفة لديهم .

كان الزين هو الآخر تم اعتقاله، بعد أن نصبوا له كمينًا محكمًا حينما كان خارجًا من الجامعة.

آض ادروب يبث وشوشات الحبور في جنبات الزنزانة والجلاد خشي مجابهته .

وأدروب هذا لم يتقيد في حياته أبدًا بنظام فلسفي واحد يحيط بجميع العلل والأسباب.

كان أحدهم يجلس في إحدى زوايا الزنزانة وهو منزو يشتم ويلعن بصوت جهور، لاحقًا عرف إنه ينتمي إلى تنظيم الدولة الإسلامية داعش .

حينما علم بأن خالد الصادق شيوعيًا، أمطره بوابل من الشتائم وهو

يقول:

- أنتم الكفار البتنبذوا صحابة رسول الله وأهله بيته .

وأطلق عبارات الوعيد لهم .

الجمت الدهشة مصعب، يتساءل في قرارة نفسه ، هل هناك كائنًا من كان لا يعرف الشيعة بأنها طائفة دينية، والشيوعيين شيئًا مغايرًا !!؟؟؟

كان يقصد بخوائه الفكري الشيعة وليس الشيوعيين، ولأيام طويلة أفرد له مصعب مساحة طويلة من الوقت وعمل جاهدًا على شرح الفرق بين الشيعة والشيوعيين، دون جدوى .

حرم ودالعمدة ورفقاءه من الماء والذهاب إلى دورات المياه، ونظافة اجسادهم التي انهكها التعذيب الوحشي .

في صبيحة اليوم الموالي بدأ الانتشار الكثيف لعناصر الأمن يطوقون الزنزانة، دلف إليهم شاب صغير السن نسبيًا، ذو لحية خفيفة يعتريها بعض الشيب الباهت بخطى وئيدة وهو يطوف بعينه الزنزانة، والشرر يقدح منها ، أخنعهم عنوة إن يقفوا صفًا واحدًا ورفع أيديهم والاتجاه نحو الحائط.

كانوا كوكبة نيرة من المستنيرين، تبدو عليهم سيماء المثقف .

لم يكن قد مضى وقت طويل حتى صار الجلاد يطوف عليهم جيئةً وذهابًا كما البندول البسيط، يتحدث بفخر عما سيفعله بهم، يطلق عبارات التهكم والسخرية حينما يقول:

أنا سننتزع أظافركم إذا لم تتعاونوا معنا وأضاف:

- أنا براي قبل كدا قلعت أضافر عشرة طوابير.

رسم ابتسامة خبيثة على محياه وهو يقول بنبرة حادة مع إن كل شيء بداخله يرتجف:

أن الأول أصيب بإغماء، والاخر أفرغ كل ما ابتلعه في جوفه من طعام ، وأحدهم مات من فرط الألم .

أجال الجلاد يديه عميقًا داخل جيبه وزفر قائلًا:

-يـراودني الحنين لرائحة زمن مضى لأمارس تلك الأشياء التي يرتعش قلبي لذكراها .

ألقى بنظرة زائغة نحو ودالعمدة حيث لمحه من الخلف ورادف بصوت كان مخيفًا:

- انت شكلك ود عرب ، ما في ودعرب بطلع على الحكومة دي ، عاين لي هنا .

دور ود العمدة رأسه نحو الجلاد بعينيه شبه المغلقتان ووجهه المتورم ونظر إليه بنظره هازئة، ونظرة المثقف المتحدية تطل من عينيه، ورعدة شديدة تتمشى في أعضاءه وهو يقول:

- الطيب أخوي دا أنت .

سدد إليه ٠ نظرة نفذت من عينيه إلى صميم عقله .

عقدت الدهشة لسان الطيب شقيق ودالعمدة وطفرت الدموع على عينيه واندفعت خارجة .

صار يضرب أخماسًا في أسداس يتشبث بأصابعه العشرة على الكرباج

بينما البقية ثبتوا أبصارهم نحوه الذي شعر بأن عليه قول شيء لا يعرف ما ينبغي قوله ، وهرول كالرياح الموسمية خارجًا .

في آخر ذاك اليوم النضيد تم استدعاء ودالعمدة على ضابط التحقيق مرة أخرى فدلف إلى غرفة التحقيق واثق الخطى .

أردف الضابط بصوت موهن:

- طبعًا عصيانكم دا ما أسقط الحكومة دي لأنها أعتى من الجبل، لكن عمل خسائر طفيفة.

تراجع ودالعمدة إلى الوراء قليلًا حتى لامس قفاه المقعد وأردف بصوت جهور:

-أول الغيث قطرة ، وهو يبتسم تلك الابتسامة التي تقطر انتصارًا!

إنها الثالثة إلا ربعًا، عقارب الساعة تنتقل في بطء و كسل، ودالعمدة مستيقظًا هائمًا على وجهه في حجرته التي تعبق برائحة البخور، والمدينة لا تزال نائمة، يشعر بمس من النعاس يداعبه، منطويًا على نفسه في فراشه يئن أنين الواهة الثكلى.

ينحدر إلى يمينه مرة وإلى يساره أخرى، يتغلغل في أحشاء الظلام متيمنًا، متبسرًا.

يحاول تجميع ذاته المبعثرة في غرفته الخاوية ، والجدران الصماء، اعتاد أن يستيقظ الليل بطوله في منزله الجديد ومقعده الجديد.

فرد ذراعيه وأحتضن الليل، ملأ صدره بنسيمه المنعش، انزلق مغادر الفراش، لا يزال ساهرًا قلق المضجع، يطلب الراحة فلا يجده، عيناه مخضلتان من البكاء.

تمدد على ظهره وهو يتمطى في حبور طفولي، مسربل بأوجاع الذات ، ينظر الى سقف الغرفة الذي لم يكن يظهر منه شيء إلا مروحة السقف التي تدور في أعياء.

تنخر بعقله أحزان تقترب به إلى جب الهاوية، يحاول أن يستعيد ألق الضحكات القديمة، بوجه كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة، والأسى يحز في نفسه.

قلبه يرتجف من تصاريف وعصف هذا الزمان ، نفسه معلقة من أطرافها ، تتنازعها غوايات الخرطوم ! .

هبطت به الأيام والليالي أحاسيس غريبة ترجرج جسده من الداخل وتقشعره من الخارج، وصباحه أيضًا لا يختلف عن صباحات الأيام الأخرى إلا في صوت التثاؤب.

هجير الشمس الغاضبة تحدق فيه طوال النهار، يطرق الأبواب يتصفح وجوه الرزق، وهو منساق لترك كل شيء خلفه حتى مزق حذاءه الهراء .

طالت لحيته ، وضاعت ملامحه في تنيات الدهور ، يقضي نهارًا مضني ليجمع ثمن طعام أسرته، يعتاش من المهن الهامشية، فهو باهل عن العمل .

في الأعماق البعيدة من مسارب نفسه يجذب خيوطًا، بعضها يمتد، وبعضها يتقصف، يتذكر أيامًا شدادًا نكدات قبيحة الخاتمة .

شهادته الجامعية ضرب بها عرض الحائط، مضت الحقيقة في ذهنه كبرق لا يخفى عن عين أعمى، وبدأت هزائم عمره والمشوار الطويل في قاع مستقبله المغتصب .

فقد آض الطيب شقيقه طريح الفراش، تنتابه نوبات واضطراب بالغ في النوم، بفعل ما حدث في مقر جهاز الأمن، لأيام طويلة كان يهيل التراب على رأسه، عاجز عن الاتيان بأي حركة، يغمغم بعبارات جوفاء بما يشبه اللوثة، ونزوات تعاود قلبه من حين لآخر .

دور جسده واستلقى على ظهره حاضنًا رأسه بكفيه، نام القمر وهو مازال مستيقظًا .

قفز إلى أعصابه الإحساس القديم .

مرت بذهنه صور باهتة لوجوه اهل القرية، كلما يغمض عينيه يرى طيف أهل القرية بشعورهم الشُّقْر وملامحهم النضيرة تعلوها ابتسامات بحلول الدجنة .

بات يشعر بنوع من الحنين، ساعدته تلك الذكرى الممتعة على تخطي اللحظات العسيرة.

رائحة الأصدقاء هي الأخرى عالقة في سنامه، ونسمات الليل ترطب وجوههم الملتهبة، قبل أن يفر أصدقاءه بجلدهم عبر مطار الخرطوم من ويلات مجثمهم .

لم يعد يملك القدرة على اجتراح صداقات جديدة وصدره كذلك لم يعد متسع لغويات جديدة بعد أن هرب النهار الحافلة بالبراءة والأمسيات التي ترشح بالهناء .

أو على الأرجح هو حنين من نوع أخر حنين للوطن، الذي ما عاد يمثل ملاذهم الامن ، حتى صار الفرد كاليتيم في مائدة اللئام وهرب المرح من عيونهم .

أحرق أموال أخيه الطائلة التي قبض ثمنها بعد أن باع ضميره بأبخس الاثمان، لأنها ملوثة بدماء الأبرياء .

انفق جميع ما في يده من مال، فاستدان، أثقله الدين عجز عن

الوفاء، وصار لا يملك إلا ساعات أخر النهار، يقضيها وهو يمشي مشية الذاهل الحائر في تصفح وجوه الرزق.

بات صفر اليدين، اشتاقت أنامله لمداعبة النقود ، بيد أنها آضت شاحبة، يمسك بها سجائره رخيصة الثمن كيف لأعقاب سجائر أن تطفئ ما في قلبه من أوجاع، يسحب منها نفسًا عميقًا ، بعصبية مفرطة يزفر الدخان.

تلبد الجو بدخان السجائر في أضابير الليل بضع دقائق يحاول خلالها أن يسترد رأسه من الصداع الجنوني الذي استولى عليه.

.يرى مستقبله في طيات ذلك الدخان، يرسم له وظيفة مرموقة، سيارة فارهة لا يعرف نوعها، شقة جميلة تطل على النيل ويسرف فكره في ذاك الحلم الغائب، يرقص به فؤاده طربًا، لكن سرعان ما يعتريه القنوط حينما يتلاشى الدخان، وتتعالى أنفاسه الصاهدة في ظلام يغلفها حتى أهداب العيون.

يقضي ليالي مسهدة حتى كل خيوط النهار لا تستطيع ان تبدد من حوله سواد الليل .

عالقة في ذهنه أمل ، تتقافز من صندوق ذاكرته كرؤى الانبياء انصاتها الرزين وتعليقاتها الذكية، وضحكتها الندية التي تجلجل في الفضاء كأنها طير خرافي يعزف لحنا لا حد لجماله .

فالعلاقات الغرامية مزيج من صبابة تلاق وفراق، لم يبقَ غير آثار جرح قديم يؤلمه من حين لآخر، لكنه لا يؤرقه أبدًا.

يغرق في همومه بعد أن هدته الخرطوم بآلامها وأوجاعها حتى تربت يداه.

يساوره حزن عميق نحو أسرته، فلم يعد بوسعه توفير احتياجاتهم الأساسية رغم تكبده عناء المشقة.

يتألم كثيرًا من هول المعاناة التي تسبق النهاية، فالعمدة الخليفة أصيب بأمراض مستلهمة من تلوث العاصمة الخرطوم ، حط به عمره في أرض الوهن، آل زمانه الى خط الزوال .

يشهد تقلبات زمانه المضطرب، ما أعجب العمر إنه الشيء الوحيد الذي إذا زاد نقص .

يفاقم السكر إحساسه بالمرض، يتصاعد إحساسه بالوهن واصبح محدودب الظهر، يحتاج إلى مبلغ ضخم، يصعب على ودالعمدة توفيره.

بقيت له في ذاكرته صورة معتمة لا تكشف إلا عن جزء يسير من قريته .

مسكين هذا الشاب الملتاع الذي قذفته أرجوحة ثمالة الخرطوم إلى جُبِّ الهاوية .

لايزال في ريعان شبابه إلا أن عينيه خفت فيهما النور وذبل.

سنوات مضت صاخبة الإيقاع ، حافلة بالفواجع والخطوب اللهية، غارقًا في وحل آلامه وأوجاعه إلا ان أن طوق النجاة أتاه من حاج صالح والد صديقه، بعد أن حصل له على عقد عمل في إحدى دول الخليج، ليتوكأ طورًا آخر على عصى ترحاله وهو يحذو حذو سائر

أنداده، ليبدأ رحلة موسم الهجرة إلى الخليج.

غير آبه من خوض غمار هذه الرحلة ، كشبح فر من قعر الجحيم!!!.

شعر بوخز كان مألوفًا لديه ، يغمغم بما يشبه اللوثة، لم يكن يمنِّي نفسه فراق مجثمه، لكن باعثه حال دون ذلك بعد أن نثرتْ الأشواك في طريقه!